

شاعر الثورة الجزائرية

سن فتح الباب

81



الدار المصرية اللبنانية

مفـدى زكـريّا

مختار حسن فتح الباب

مفـدى زكـريّا

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٩٧ / ٤٧٩٥

الترقيم الدولي : 4 - 432 - 270 - 977

جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ - ٣٠٣٦٠٩٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : محرم ١٤١٨ هـ - مايو ١٩٩٧ م .



شرح وافية

بالحمد لله رب العالمين

المحتويات

١١	هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء
١٧	لمحة تاريخية
٢١	شعراء ثورة التحرير الجزائرية
٢٥	مولد الشاعر مفدى زكريا ونشأته
٢٩	إبداعه الشعرى وكفاحه الوطنى والقومى
٣٧	ديوان « اللهب المقدس »
٥٣	ملحمة « إياذة الجزائر »
٦٩	فى دار الخلود
٧٥	مختارات من شعره
٨٣	المراجع

الشعر

ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .

والشعراء هم أصحاب الرأي والتعبير على مرّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر - كما يصنعون في الأفراح - لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذى يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفَاخِرُ بِأَثَرِهِمْ . . والمُمَجِّدُ لذكْرِهِمْ .

وكان العرب لا يهتئون إلا بغلام يُولَد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربى على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية ، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربى يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربى معاً .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسّموا عصور الأدب العربى إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيّر السياسى داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

- فالعصر الجاهلى مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهى بظهور الدعوة الإسلامية . .

- ويبدأ العصر الإسلامي منذ ظهور الدعوة .. وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين .. وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

- ويبدأ العصر الأموي منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

- أما العصر العباسي الأول يبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بني بويه عام ٢٣٤ هـ .

- ويبدأ العصر العباسي الثاني منذ قيام دولة بني بويه حتى هجوم المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

- ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد علي حتى وقتنا الراهن ..

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهي بقيام دولة وسقوط أخرى .. ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة - كما تتغير الظروف السياسية - وإنما يعني هذا التقسيم أن ملامح الأدب في عصر ما تستكمل مقوماتها في ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى في عصر تالي .. وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة في ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوته ضائعاً في زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثن تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورؤاؤهم وتجاربهم ، متجاوزوا سَمَتَ العصر ، واخترقوا حاجزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شاخحين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنساني ، على حين أسول الزمن على مَنْ لم

يمتلك هذه القدرة عباءته السوداء ، خطواهم في جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا في التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارئ المعاصر - في زحام الحياة الضاغطة المهمومة - في حاجة ملحّة إلى الاقتراب من عالم الشعر - قديمه ومعاصره - في أبرز نماذج ، وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكي يقف على عظمة هذا الفن العربي الذي تقدّم كل شيء ، وأحرز سبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هي جزء من عظمة التاريخ العربي والحضارة العربية .. وهي أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصع في السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعَصَفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ، فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا في باب كل عصر نظرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التي تمثله خير تمثيل .

وآثرنا في خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة .. أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئة .. لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد - بقدر الإمكان - عن المناهج الأكاديمية التي قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسرد والنص الشعري .. يهدف كسر الملل والرتابة .. وتقريب القارئ الشاب إلى عالم الشاعر الإنساني والفني معاً .. بحيث يخرج القارئ من الكتاب بمعرفة غير محدودة

نطالع الصفحات التي سجلها التاريخ الحديث عامة **حينما** والتاريخ العربي خاصة عن كفاح الشعوب في سبيل التخلص من الاحتلال الأجنبي تسترعى نظرنا وتثير وجداننا ثورة التحرير الجزائرية التي اندلع لهيبها في أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، واستمرت مشتعلة حتى حققت انتصارها وأعلنت استقلالها في ٥ يولية سنة ١٩٦٢ بعد مائة واثنين وثلاثين عامًا من الاستعمار لم تنقطع خلالها حلقات المقاومة والكفاح . فما إن تُحمَد السلطة الباغية جَذَوَتَهَا في منطقة حتى يعود الرماد إلى الاشتعال في منطقة أخرى ، إلى أن هب الشعب عن بكرة أبيه في ثورته الكبرى محطماً قلاع الظلم والظلام .

ولقد أكدت هذه الثورة أن أعتى الأسلحة التي كانت في حوزة الاستعمار الفرنسي وأدهى الخطط التي أحكمها بمؤازرة حلف الأطلس في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين لم تكن لتستطيع أن تقهر إرادة مَنْ آمَن أن الحياة لا تستحق أن تُعاش في ظل العبودية . فلا غرَوَ أن قَدَّمَ شَعْبُ الجزائر على مذبح الحرية واستعادة الأرض والهوية والكرامة أغلى الضحايا الذين ضمخت دماؤهم الزكية تراب وطنهم ، وماتوا مثل الأشجار واقفين وهم يرددون : (الله أكبر ، وتحيا الجزائر) .

وقد كنا في مصر وفي سائر البلاد العربية ندرك بمزيد من مشاعر الاعتزاز والتقدير أن هذا الشعب سوف ينتزع من براثن الاستعمار وطنًا عربيًا عزيزًا ،

قادراً على أن يأخذ مكانه من الوطن الكبير الأم ومكانته في العالم ، وأن يقوم بدوره في دعم الحضارة العربية ، ويُسهم في ازدهار حركة الحرية والعدل والتقدم التي يقودها المناضلون من أبناء الشعوب التي عانت طويلاً من التخلف الذي فرضته عليها القوى الاستعمارية ، ومن حرمانها من أدنى حقوق الإنسان . وكم تطلعنا إلى بشائر الأمل في انتصار الثورة الجزائرية ونحن نرى شعبها يُذهل الصديق والعدو بصموده وتضحياته التي تشبه الأساطير ، فقد بلغَ عددُ شهدائه مليوناً ونصف المليون .

وكنّا في مصر ندرك أيضاً أن معركة الشعب الجزائري ليست معركته وحده ، ولا هي معركة الوطن العربي في الشمال الغربي الإفريقي فحسب ، وإنما هي معركة العالم الثالث كله ، معركة الشعوب المُستعبدة المنهوبة ضد أعدائها من المستعمرين المستغلين ، معركة التاريخ لكي يشق طريقه الحتمي إلى الأمام . ولم يغب عن وعينا أن الاستعمار في أشنع صوره - وهو القائم على الاستيطان واستئصال الجذور ، بطمس الشخصية الوطنية ، وتشويه الدين ، وواد اللغة الأصلية ، وهى وعاء الثقافة - يحارب في الجزائر بضراوة استجمع فيها كل أدواته وموارده الجهنمية ضد شعبٍ أعزل ، إلا من درع إيمانه بحقه ، وبضع بنادق صيد ابتدأ بها معركته الصعبة الطويلة ، ثم استطاعت كتائبه من الفدائيين أن تَغْنَم في هجماتها على معسكرات العدو الغاصب أنواعاً متعددة من الأسلحة جاربوه بها .

وكان لمصر العربية في عصر ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ التي قادها الزعيم جمال عبد الناصر دور كبير في إمداد ثوار الجزائر بالسلح والعتاد عن طريق تونس ، فضلاً عن دعمها السياسى لهم في المحافل الدولية ، وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة ، لإقناع الرأى العام العالمى والمنظمات الدولية والإقليمية بعدالة القضية الجزائرية ، ودخض مقولة المستعمر « إن الجزائر جزء من فرنسا » . ويرجع الفضل فيها صدر من قرارات وتوصيات من الأمم

المتحدة في صالح الجزائر إلى الجهود التي بذلتها مصر في سبيل الدفاع عن حق الجزائريين في تقرير مصيرهم بأنفسهم .

أما على المستوى الداخلى فقد كانت مصر امتداداً معنوياً لجبهة المقاومة الجزائرية ، إذ خصصت مساحة كبيرة من وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة لقضية الجزائر ، وفي مقدمة هذه الوسائل « إذاعة صوت العرب » التي كانت توالى بثُّ أبناء الكفاح المسلح الذى يخوضه أبناء الجزائر لتحرير بلادهم ، وتشيد ببطولاتهم ، لشد أزريهم ، وتوعية الرأى العام داخلياً وخارجياً بالدوافع الوطنية النبيلة التى فجرت ثورة الفاتح من نوفمبر كى يتضامن معها العرب . وكان الثوار يستمعون إلى هذه الإذاعة في معاركلهم على جبال « الأوراس » من خلال الأجهزة الصغيرة التى استطاعوا تصنيعها ، أو أمدتهم بها بعض البلدان العربية ، وفي مقدمتها مصر ، أو التى غنموها في معاركهم . وبلغ من تقديرهم للرسالة التى اضطلعت بها تلك القناة الإذاعية أن أطلق على أحد المجاهدين اسم « صوت العرب » مثلاً سَمَى كثيرٌ من الجزائريين أبناءهم باسم « جمال » عرفاناً بجميل قائد ثورة ٢٣ يولية ، وإن كانت مصر تعدُّ مناصرة الشعوب العربية واجباً ، بل فريضة .

وقد وفدت إلى الجزائر بعثات صحفية مصرية لرؤية الوقائع رأى العين ، ونُقِل أخبارها إلى العالم ، لدحض المفتريات والشائعات الكاذبة التى كانت تذيعها وتشرها السلطة الاستعمارية ومن دار فى دائرتها ، ولفضح الجرائم التى كان يرتكبها جيش الاحتلال ضد المدنيين بالمخالفة لأحكام المعاهدات والاتفاقات الدولية التى وقعت عليها الدول الأوربية ، ومنها فرنسا ، كما أرسلت مصر إلى المناضلين الجزائريين بعثات طبية لعلاج الجرحى ، وكان الأديب الدكتور يوسف إدريس أحد الأطباء الذين قاموا بواجبهم القومى والإنسانى ، وقد التقى ببعض المجاهدين فى مواقعهم .

شعراء ثورة التحرير الجزائرية

واستقبلت مصر مَنْ أوفدتهم إليها جبهة التحرير الجزائرية من الشباب المنخرطين بها لتدريبهم على فنون القتال المشروع . والتحق بالأزهر ودار العلوم لتلقى العلم بَعْضُ هؤلاء الشباب ، ومنهم هَوَارِي بُومَدِين الذى أصبح بعد ذلك رئيسًا لجمهورية الجزائر . ومما يجدر بالذكر أنه سافر خلال فترة إقامته بمصر على متن سفينة مصرية محملة بالأسلحة إلى الجزائر .

واستوحى شعراء مصر الثورة الجزائرية ، شأنهم في ذلك شأن رفقاتهم في سائر الدول العربية ، فصدرت مجموعة شعرية ضمت قصائد لعدة شعراء باسم « جميلة بوحريد » ، إذا اعتبروها رمزًا لتلك الثورة ، لنضالها الذى أدى إلى الحكم عليها بالإعدام ، ثم استبدال السجن بهذا الحكم ، بعد أن ثار رأى العام العربى والعالمى . كما كتب الأديب الشاعر عبد الرحمن الشراوى مسرحية شعرية باسمها أيضًا ، مُثِّلَتْ في المسرح القومى . ووضع الموسيقى محمد فوزى لحن النشيد الوطنى الجزائرى (قسما) الذى كتبه الشاعر مفدى زكريا .

وهكذا كانت العلاقات وثيقة بين جزائر الثورة ، ومصر ٢٣ يولية في مختلف الميادين ، إذ كان من محاور السياسة الخارجية المصرية مساندة حركات التحرير ، مما أوغر صدر فرنسا ، فقامت بالاشتراك مع بريطانيا وعميلتها إسرائيل بالعدوان الثلاثى الغادر على مصر سنة ١٩٥٦ ، وقال الرئيس جمال عبد الناصر في خطاب وجهه إلى الجماهير في أعقاب الغزو : « سنترك للفدائيين الجزائريين مهمة تأديب بينو »^(١) .

(١) رئيس الوزارة الفرنسية وقتئذ .

لكل

ثورة أو حركة تحرير شعراؤها الذين يمثلون ضمير شعبها ، ويصورون ما يُخالج صدر هذا الشعب من آمال ، وما يعانيه من آلام ، ويتصرفون في قصائدهم وأناشيدهم للثورة ، فيَمَجِّدون رجالها ويَحْلِدون شهداءها ، ويَحْضُون الشباب على الانضمام إلى ركب النضال ، ويَحْثُون من تَقْصُر طاقته عن القتال على بَذْل المال ، أو تقديم ما يستطيع من سائر وسائل العَوْن إلى المحاربين أو إلى أهليهم من أطفال ونساء يضطهدهم العدو المحتل ، أو إلى الأيتام الذين فقدوا آباءهم ، والأرامل اللاتي فَقَدْنَ أزواجهن .

ومن ثَمَّ فإن هؤلاء الشعراء يقفون في صفوف الثورة ويدافعون عنها بألستهم وأقلامهم . وهم يُسَمَّون شعراء المقاومة ، لأن الدور الذى يضطلعون به لا يقل أهمية ولا أثرًا عن دور المقاومين بالسلاح ، فالكلمة البليغة الصادقة تنفذ إلى أعماق النفس فتَهْزِجُ وجدان ، وتسهم في تعبئة القوى على درب الكفاح . ولا يؤثر الشاعر الوطنى في أبناء قومه فحسب ، بل كثيرًا ما يصل صوته عبر وسائل الإعلام إلى البلاد المجاورة لوطنه ، وقد يكون من بينها بلد العدو نفسه إذا تُرْجِمَتْ قصائدهم هذا الشاعر إلى لغته ، مما قد يؤدي إلى كسب مزيد من أنصار الثورة أو المتعاطفين مع شعبها ، وقد تتسع دوائر هذا التأثير حتى تشمل كثيرًا من البلدان على اختلاف مواقعها وتباين أنظمتها .

بحريته في سبيل الثورة ، إذ قضى مفدى في عالم السدود والقيود شطراً من عمره ، وفُرضت على الثانى الإقامة الجبرية في بلدته « بسكرة » . وكلاهما من جنوب الجزائر ، وقد وُلِدَا ورَّحَلَا عن الحياة في سنوات متقاربة ، إذ عاش محمد العيد من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩٧٩ ، وعاش مفدى من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩٧٧ .

وشعراء الثورة الجزائرية الذين انضموا إليها وناصروها وضَحُّوا في سبيلها بأمنهم أو جريتهم أو حياتهم عديدون ، منهم مَنْ لَقِيَ نَحْبُهُ وأصبح في رحاب الله ، ومنهم أحياء معاصرون ، فمن الأولين محمد السعيد الزاهرى ، وزهير الزاهرى ، وأبو اليقظان بن الحاج عيسى ، وأبو بكر مصطفى بن رحمون ، والهادى السنوسى ، وأحمد سحنون ، وعبد الكريم بن العقون ، وعمر بن قدور ، والربيع أبو شامة . ومن الأخيرين الدكتور أبو القاسم سعدالله ، والطبيب الشاعر محمد الصالح باويه ، وأبو القاسم خمار ، وصالح خباشة ، والأخضر السائحي ، أطال الله أعمارهم . ويقع في الصدارة من هؤلاء جميعاً الشاعران « مفدى زكريا » والشيخ « محمد العيد خليفة » رحمهما الله ، فقد وَاكَبَا الثورة في جميع مراحلها ، وربطاً مصيرهما بها . وَخَلَّدَا اسميهما كأكبر شاعرين جزائريين في عصر ثورة التحرير ، فما إنْ تُذَكَّر هذه الثورة حتى يُذَكَّرَا معها .

وَيُعَدُّ هذان الشاعران فَرَسَيْنِ رِهَانٍ في حلبة حركة التحرير ، ومثلهما في اقتران اسم كل منهما بالآخر كمثل شوقى وحافظ في مصر . وإذا كان محمود سامى البارودى قريناً للأمير عبد القادر الجزائرى ، فكلاهما كان رَبَّ السيف والقلم ، فإن مفدى ومحمد العيد حفيدان للأمير عبد القادر في الشعر ، ورائدان من رُوَاد الشعر الحديث ، كما أن « شوقى » و « حافظ » حفيدان للبارودى ، ورائدان بعده لمدرسة الإحياء الشعرى .

ويتقاسم الشاعران الجزائريان مفدى والعيد الشهرة الأدبية والمنزلة الوطنية ، فالأول يُلقب بشاعر النضال السياسى والثورة المسلحة ، وهو صاحب النشيد الرسمى للجمهورية الجزائرية (قسماً بالنَّازِلَات) ، والثانى هو شاعر جمعية العلماء الجزائريين المسلمين ولسانها . وكلاهما ضحى

مفدى زكريا فى بنى يزقن ، وهى إحدى قرى منطقة ميزاب
ولد بالجنوب الجزائرى . ومن الطبيعى أن يكون لزمن الميلاد
ومكانه دلالتها وأثرهما فى تنشئة الشاعر وفى مسار حياته
وخصائص إنتاجه فى الشكل والمضمون . لقد كان هذا الزمن وهو عام
١٩٠٨ يقع فى أحلك حقبة فى تاريخ الجزائر ، إذ كانت ترسف فى أغلال
الاستعمار الغاشم الذى جثم على أنفاسها منذ سنة ١٨٣٠ . وقد كان
نصيب أهل الجنوب الجزائرى من المعاناة كبيرا ، لا بسبب الطبيعة
الصحراوية القاسية المناخ صيفا وشتاء ، وبدائية وسائل الانتقال
والاتصال ، وضيق موارد العيش ، حيث تقتصر على ما تغله الواحات من
تمر يُعَدُّ المحصول الرئيسى ، وما ينبت فيها من زرع يكفى بالكاد السكان ،
نظرا لقلّة المياه الجوفية المستخرجة من الآبار ، وإنما ترجع المعاناة إلى الحصار
الذى أَحْكَمَهُ الجيش الاستعمارى والسلطة الحاكمة حول المناطق الصحراوية
بتطبيق نظام الأحكام العسكرية طوال سنوات الاحتلال الطويلة المريعة ، إذ
اعتبروها مناطق عسكرية .

لقد كان محرّما على أبناء الشعب الجزائرى فى الجنوب الانتقال من جهة إلى
أخرى فى بلادهم إلا بتصريح كتابى تُصدره السلطة ، لا لذنّب اقترفوه -
حتى يُعامَلُوا معاملة الأسرى والمُسجونين - وإنما لوجود آبار النفط فى تلك
الرقعة النائية من التراب الجزائرى ، وخشية تلك السلطة من اندلاع حركة
شعبية ثورية تستولى على هذه الآبار أو تدمرها تدميرا ، فينقطع الشريان

الإسلامى ودخولهم فى الدين الحنيف أفواجا بعد أفواج ، ثم شاركهم فى فتح الأندلس مع القائد طارق بن زياد ، الذى ينتمى إلى قبائل البربر الذين اعتنقوا الإسلام ، وهم السكان الأصليون للجزائر .

لقد ورث الفتى المنذور لعالم الشعر هذه التقاليد والخصال الحميدة ، فتشربت روحه بمناقب الفروسية البعيدة الأغوار فى النفس العربية ، والتى ترجع إلى ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية ، ثم صقلتها وشذبتها شريعة الإسلام ، وأبقت على الجوانب المضية منها ، وهى الكرم والمروءة والشجاعة والدفاع عن الأرض والعرض والاستشهاد فى سبيل العقيدة والوطن . وهكذا نشأ مفدى زكريا شاعرا ثائرا بين جنبيه قلب فارس ، ومن أخلاقه شيم البطولة والتضحية فى سبيل المبادئ والمثل العليا .

ولما كان أهل الجنوب الجزائرى يعرفون قيمة العلم والعلماء منذ أظلتهم راية الإسلام ، فقد هیأت أسرة مفدى له طريق الدرس والتحصيل ، ولا سيما أن أفرادها توارثوا الرغبة فى التعلم والنزعة الدينية والوطنية ، وكان المناضل عبد العزيز الثعالبي يتردد على هذه الأسرة . ومن ثم التحق مفدى بكتاب القرية حيث تلقى مبادئ العلم والدين . ثم أوفده والده - وكان يشتغل بالتجارة - إلى مدينة « عنابة » فى الجنوب الشرقى للجزائر ، ومنها إلى « تونس » وهى الدولة المتاخمة للجزائر من الشرق ، والتى ترتبط بها أوثق الارتباط ، وفيها واصل دراسته ، شأه فى ذلك شأن كثير من أبناء الأسر الجزائرية التى تعتبر العلم ذخرا متلقيا ولأهله وبلده .

وعن رحلته لطلب العلم فى تونس يحدثنا الشاعر فى حوار أجراه معه الصحفى الأديب الجزائرى بلقاسم بن عبد الله ، وضمّن كتابه « شاعر مجد ثورة » ، فىقول : « زاولت دراستى الابتدائية والثانوية والعالية بحاضرة تونس ، منتقلا بين مدرسة السلام والمدرسة القرآنية الأهلية ، ثم الجامع

الحيوى الذى يغذى الاقتصاد الاستعمارى . كما كان من عوامل اشتداد قبضة المحتلين على عنق الجنوب الصحراوى خشيتهم مما قد يؤدى إليه اتصال أهل الشمال بأهل الجنوب من العمل معاً على مقاومة جيش الاحتلال ، والاستيلاء على ثروات المستوطنين الفرنسيين التى نهبوا ، والإضرار بمصالحهم .

فى هذه البيئة ، وفى ظل تلك الظروف الصعبة ، ولد ونشأ مفدى زكريا ، فكان من الطبيعى أن يتأثر بها . ولو أنه ترك لنا مذكراته التى تتضمن سيرته الذاتية منذ طفولته لعرفنا رد فعل المظالم التى لقيها أهله ، وشاهدها بعينيه فى نفسه . ولنا أن نتصور فتى يافعا أوتى موهبة بيانية ، وحسنا مشبوها ، وتطلعا إلى حياة كريمة يحقق فيها أحلامه وآماله حين يفاجأ بصورة واقعية مناقضة لما كان يسبح فيه خياله . لا شك أن تساؤلات كثيرة قد راودته فى صباه : لم هذا الظلم الفادح الذى يوقعه الدخلاء على أصحاب البلد الشرعيين ؟ ولماذا لا نلم شملنا ونجمع إرادتنا على طردهم من أرضنا التى احتلوها عنوة واستولوا على خيراتها ، وما زالوا يستنزفونها دون رادع من ضمير ؟ وإذا كان العالم المحيط بنا يتذرع بالصمت ويتجاهل ما يراه أو يبلغه من جرائم الاستعمار فلا يمد لنا يد العون والإنقاذ ، فلماذا لا نتحرك نحن لصد غائلة الجائرين وكف أيديهم عن المحرومين المضطهدين ؟

لقد كانت هذه هى الشرارة الأولى التى فجّرت لهب التمرد على الأوضاع الجائرة فى حنايا مفدى زكريا ، وأهمته بعد ذلك قصائد الرفض والمقاومة ، فكان شاعر الثورة الجزائرية منذ انطلقت فى أوائل الخمسينيات .

وثمة عامل آخر شكّل وجدان شاعرنا وفكره ، وكان له أثره الإيجابى فى شعره ، وفى تكوينه الثقافى وعطائه الشعرى ، ألا وهو التقاليد العربية الإسلامية الأصيلة التى رسخت فى نفوس أبناء الجنوب الجزائرى منذ الفتح

إبداعه الشعرى وكفاحه الوطنى والقومى

المعمور « الزيتونة » ، والصادقية ، والخلدونية ، ومعهد الآداب العليا بالقطارين . . . ويستطرد فى الحديث عن محاولاته الأولى فى نظم الشعر : « شرعتُ فى قَرْضِ الشعر سنة ١٩٢٥ بقصيدة فى رثاء « كبش الفداء » بعيد الأضحى ، متأثراً بمذهب أبى العلاء المعرى ، وأتذكر منها مطلعها ، وبيتاً آخر :

لَهْفَى عَلَى شَاةٍ لَنَا قَدْ قُيِّدَتْ

لِلذَّبْحِ وَهِيَ نَقِيَّةُ الْأَذْرَانِ (١)

اسْتَضَعْفُوكَ فَلَدَّ لَحْمُكَ عِنْدَهُمْ

هَلَّا اسْتَلَذُّوا لَحْمَ لَيْثٍ قَانِي (٢)

وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ تَقْلِيدٌ لِلْعَبَارَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ الْمَعْرِى ، وَهِيَ قَوْلُهُ مَخَاطِبًا الْبَيْتِ : « اسْتَضَعْفُوكَ فَذَبْحُوكَ ، وَلَوْ كُنْتُ ذَا نَابٍ لَوَقَّرُوكَ » .

إِذْ كَانَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِى نَبَاتِيًّا لَا يَأْكُلُ لَحْمَ الْخِيَوَانِ أَوْ الطَّيْرِ . وَيُوَاصِلُ مَفْدَى زَكْرِيَا سَرْدَ ذِكْرِيَاةٍ فَيَقُولُ : « وَأَضْرِبْتُ سَتِينَ يَوْمًا عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ، حَتَّى إِذَا مَا « تَبْتُ مِنْ تَوْبَتِي » أَصْبَحْتُ أُحِبُّ اللَّحْمَ بِأَصْنَافِهِ الثَّلَاثَةِ ، مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ تَوْصِيَةَ الْجَاحِظِ فِي ثَلَاثِيَاةٍ : « ثَلَاثَةٌ لَا أَلْذَّ مِنْهُمْ . . ! » ، وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ هَذَا الْكَاتِبَ الْعَرَبِيَّ الْكَبِيرَ كَانَ مُوَلَّعًا بِالْفَكَاةِ .

(١) نَقِيَّةُ الْأَذْرَانِ أَيْ نَقِيَّةٌ لَمْ تَسْخَ . . وَلَا يَحِقُّ لِمُسْلِمٍ - أَيَّا كَانَ - أَنْ يَعْطِضَ أَوْ يَتْلَهَفَ عَلَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَنَا وَلِغَيْرِنَا .

(٢) الْقَانِي : الْأَحْمَرُ اللَّوْنُ .

من أثر المناخ الثقافى الذى تَنَفَّسَ فِيهِ مَفْدَى زَكْرِيَا أَثْنَاءَ مَقَامِهِ
كان فى تونس خلال العقد الثانى من القرن العشرين ، والروح القومية التى كانت سائدة فى العالم العربى فى تلك الحقبة ، وتمثلت فى المقالات الصحفية ، والاجتماعات التى عُقدت للتوعية بضرورة العمل على الخلاص من الاستعمار ، أَنَّ خَاصَّ شَاعِرِنَا غَمَارَ الْحَرَكَةِ السِّيَاسِيَّةِ النَّاشِئَةِ ، وَنَذَرُ مَوْهَبَتَهُ فِي الشَّعْرِ وَالتَّرْتِيلِ لِلدِّفَاعِ عَنْ حَقِّ الشُّعُوبِ الْعَرَبِيَّةِ عَامَّةً ، وَشَعْبِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ خَاصَّةً فِي الْحُرِيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ . فَتَدَفَّقَتْ قَرَيْبُهُ بِالْقَصَائِدِ الَّتِي تَحْتُّ عَلَى الْكَفَّاحِ ، وَهُوَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ : « لَمَّا كَانَتْ حَيَاتِي الْأَدَبِيَّةَ مُتَّصِلَةً بِاتِّصَالٍ جَذْرِيًّا بِنَشَاطِي الْقَوْمِ ، فَقَدْ كَانَ « الْقَصِيدُ الثَّانِي » فِي تَمْجِيدِ جِهَادِ الرِّيفِ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى بِقِيَادَةِ الزَّعِيمِ الْخَالِدِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْخَطَّابِيِّ ، وَقَدْ نَشَرَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي جَرِيدَةِ (لِسَانِ الشَّعْبِ) بِتُونِسَ بِتَارِيخِ ٨ سِبْتَمْبَرِ ١٩٢٥ ، كَمَا نَشَرْتُهَا جَرِيدَةَ (الصَّوَابِ) فِي نَفْسِ الشَّهْرِ ، وَنَشَرْتُهَا جَرِيدَةَ (الْوَلَاءِ) وَجَرِيدَةَ (الْأَخْبَارِ) الْقَاهِرِيَّتَانِ . وَجَاءَ فِي تَعْلِيْقِ جَرِيدَةِ الْوَلَاءِ قَوْلَهَا : (هَذِهِ الْقَصِيدَةُ لِشَاعِرٍ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ وَهُوَ مَفْدَى زَكْرِيَا ، وَهِيَ إِنْ دَلَّتْ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى تَشْبَعِ الْأُمَّةِ الْجَزَائِرِيَّةِ بِرُوحِ الْإِسْلَامِ وَالْوَطَنِيَّةِ الصَّادِقَةِ) . « وَقَدْ ظَلَلْتُ أَنْشُدَهَا عَلَى مَنبَرِ نَادِي الْحَزْبِ الْحُرِّ الدِّسْتُورِيِّ التُّونِسِيِّ ، وَاعْتَقَلْتُ مِنْ أَجْلِهَا نِصْفَ شَهْرٍ .

كما كنت قد نَظَّمْتُ أناشيد حماسية كثيرة أخرى في النضال الدستورى وفى الحرب الطرابلسية - بين الشعب الليبى وإيطاليا - وأغلبها يجسم الدعوة لوحدة الشمال الإفريقى . وكان عمى الشيخ صالح بن يحيى أحد الأقطاب الثلاثة الذين أسسوا الحزب الحر الدستورى ، وغَدُوا الحرب الطرابلسية بالأموال المتجمعة من الجزائر خاصة وتونس ، واعتُقِلَ من أجل نشاطه الوطنى هو والزعيم الثعالبى والزعيم محمد الرياحى .

وقد عاد شاعرنا سنة ١٩٢٦ من تونس إلى الجزائر مُحَمَّلًا بزيادة من المعرفة ، فياضًا بالروح الوطنية ، عاقدا العزم على النضال فى سبيل قضية المغرب العربى الكبير - الجزائر وتونس والمغرب - فانتظم فى صفوف جمعية طلبة شمال إفريقيا ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ثم حزب نجم شمال إفريقيا . وهو يروى لنا الدوافع التى حدثت به إلى الانضمام إلى هذا الحزب فيقول : (دفعنى حماسى الوطنى الجارف ، فكاد يلفنى الحزب الشيوعى بالجزائر ، ولكنى اكتشفت بعد جهد جهيد حركة استقلالية سرية تُسمى «حزب نجم إفريقيا الشمالية» ، وكنت قبلها أبحث عن حركة وطنية جزائرية تناهض الاستعمار وتتجاوب مع ما ألفتته من ألوان النضال بتونس ، فانخرطت بحماس فى حزب النجمة الذى كان يعمل فى نطاق سرية خافتة ، مقتصرًا على توزيع بعض المنشير ، وترويج جريدة « الأمة » لسان حاله . وقد خرج هذا الحزب من الكتان إلى الظهور سنة ١٩٣٧ باسم حزب الشعب ، وشرفنى بأن أسند إلى أمانته العامة ، وكتبت كلمات نشيد لهذه الانطلاقة الأولى مطلعها « فداء الجزائر روحى ومالى ») .

ويندد هذا النشيد بسياسة الاندماج والفرنسة التى تقضى باعتبار الجزائر جزءًا لا يتجزأ من فرنسا ، ومنح أهلها الجنسية الفرنسية ، وما يعنيه ذلك من القضاء على الشخصية الوطنية الجزائرية ، وطمس تاريخها وتراثها العربى الإسلامى . وقد دعا إلى اعتناق هذه السياسة فريق من الساسة الجزائريين

أطلق عليهم اسم « جامعة النواب » بعد أن غرَّرت بهم السلطة الاستعمارية ، أو يتسوا من النضال ، فتصدى لهم مفدى زكريا وسائر السياسيين الوطنيين الغيورين على بلدهم ودينهم ولغتهم ، وكتب نشيدًا يدين فيه أعوان فرنسا . وقد تفاقم النزاع بين الفريقين ، فزجَّت السلطة الحاكمة بالشاعر مفدى ورفقائه فى السجن يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٧ بتهمة التآمر ضد أمن الدولة . وفى عالم الأغلال نظم نشيد الشهداء :

اعصفى يا رياح

واقصفى يا رعود

أثخنى يا جراح

أحدقنى يا قيود (١)

نحن قوم أباة

ليس فينا جبان (٢)

قد سئمنا الحياة

فى الشقا والهوان (٣)

أدخلونا السجون

جرعونا المنون (٤)

ليس فينا خئون

ينشئ أو يهون (٥)

(١) أثخنى : اشتدى . أحدقنى : أحيطى بنا من كل جهة .

(٢) أباة : جمع أبى وهو الذى يعتز بكرامته .

(٣) الشقا : الشقاء .

(٤) جرعونا المنون : اسقونا كئوس الموت .

(٥) خئون : خائن . ينشئ : يتراجع .

اجلُدُوا .. عَذِّبُوا
واشْتَقُوا واصْلُبُوا
أَحْرِقُوا خَرِّبُوا
نحن لا نرهب

وفي غِيَاب سجن الحَرَّاش بالعاصمة الجزائرية أنشأ المناضلون جريدة «البرلمان الجزائرى» الأسبوعية ، وكان مديرها السيد أحمد بودة ، ورئيس تحريرها مفدى زكريا .

وقد أفرج عن هؤلاء الثائرين السجناء سنة ١٩٣٩ بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية . ولكن شاعرنا لم يفتر نشاطه فى الحركات السرية التى تعاقبت ثم اختلفت فيما بينها وتفرقت صفوفها ، فأثر مفدى أن يتخذ موقف الحياد حتى لا يتورط فى الفتنة الهوجاء التى لا يفيد منها إلا فرنسا وذيوها . وقد رأى أن فى موقفه هذا حفاظاً على شرفه وضميره ، ثم جاء الوعد الحق ، إذ تمخض الغضب الذى كان يحتاج البلاد والتاريخ الطويل للمقاومة الشعبية عن ثورة التحرير الجزائرية بقيادة جبهة التحرير الوطنى .

واستأنف الشعر دوره النضالى ورسالته الوطنية منذ اليوم الأول لتلك الثورة التى كانت ثمرة التضحيات التى بذلها الأحرار ، فانضم إليها عاقداً العزم على التضحية فى سبيل استمرارها حتى تحقق هدفها الأسمى ، وهو تحرير البلد من غاصبيها ، واسترداد ما سلبوه من حقوقها . وكتب مفدى كلمات النشيد الوطنى للثورة الذى رددته المجاهدون فى الجبال والمدنيون فى كل مكان ، ودوت أصداؤه حتى بلغت المشرق والمغرب ، ومازال حتى اليوم نشيد الدولة الجزائرية الرسمى :

وفى خَضَمَ^(١) الحرب التى نشبت بين الجزائريين الأحرار والجيش الاستعمارى الذى تمده فرنسا بأحدث الأسلحة ، ويمده المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر بالأموال وكل أنواع المساعدات الأخرى اعتقلت السلطة مفدى زكريا مع كثير من السياسيين والصحفيين وغيرهم وألقت بهم فى ظلمات السجون . وكان اعتقال الشاعر يوم ١٢ أبريل ١٩٥٦ . ولم يُثْنِ^(٢) هذا الاعتقال من عزيمته أو يَفْتِ^(٣) فى عَضْدِهِ^(٣) ، ولا نال من توهج شاعريته وتدفقها ، بل كان العكس هو الصحيح ، إذ ازداد صلابة وثورية ، وتوالت قصائده كالغيث المنهمر ، وتسربت إلى خارج السجن ، فرددها الشعب لتعبيرها البليغ عن مشاعره ، وتصويرها الحى لأشجانه وأفراحه ، وقد نشر بعضها فى الصحف العربية ، وهو يقول فى ذلك :

(من أعماق الزنازين فى سجون بَرَبْرُوس والحَرَّاش والبرواقية أرسلت ملاحمى الثورية بالفُصْحَى وباللهجة الشعبية ، تتخطى الآفاق ، وتوقع خطوات ثوارنا الأبرار فى أعالي جبالنا الماردة العملاقة . وكان علينا ونحن بالسجن أن نقوم بمهمة أخرى ، فأسسنا - بإذن من الجبهة - شبه وزارة للتعليم والثقافة ، امتد شعاعها إلى أجنحة السجينات المناضلات بطريق المراسلة المحلية ، وقد تخرج من هذه المدارس عديد من المناضلين الذين كانوا أُمِّيَّين ، وأصبح الكثير منهم فى سلك التعليم) .

لقد بلغت الفترة التى قضاها مفدى زكريا فى السجون سبع سنوات متقطعة ما بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٥٩ ، أما أشعاره فقد استغرقت حياته كلها ، فكانت هذه الحياة هى الشعر والثورة متعانقين لا يمكن الفصل بينهما ، فنضاله شعره وشعره نضاله ، وما حَبَّتْ جذوة إبداعه قط ، سواء

(١) الخَضَمَ : البحر .

(٢) لم يُثْنِ : لم يُضْعِف .

(٣) لم يَفْتِ فى عضده : لم يوهن من عزيمته .

قبل اشتعال ثورة التحرير أو في أثنائها أو بعد الاستقلال الوطنى . فهو شاعر مناضل في المقام الأول ، وصاحب فكر يدعو إلى وحدة المغرب العربى خاصة ، ووحدة العرب عامة ، كما أنه من أغزر الشعراء العرب إنتاجاً للشعر الثورى ، وهو يقول عن منطلقات قصائده ومضامينها :

(انطلاقاً من عقيدتى ، وإيمانى بوحدة هذا المغرب الكبير ، دأبت منذ سنة ١٩٢٥ فى الدعوة لتحقيق هذه الفكرة السامية ، والتغنى بها ، وقيادة وفود حزبية لكل من تونس والجزائر لتركيز أسسها عام ١٩٣٦ . وقد عمدت فى شق طريقى لتركيز هذه العقيدة إلى تخليد بطولات وكفاح أقطارنا المغربية ، وتخليد كفاح زملائى فى النضال من زعماء هذا المغرب العتيق ، تلك البطولات التى ما انفك^(١) يمجدّها المستولون من أحرار الجزائر فى كل مناسبة ، والتى لا يستطيع التاريخ النزيه أن يحجدها أو ينتقص قيم رجالها مهما توزعت الآراء واختلفت أو اتفقت أساليب الأنظمة السائدة) .

وفى هذا المعنى - وهو الإيمان بوحدة المغرب العربى - يقول الشاعر هذه الأبيات التى تجمع بين الرقة والرصانة وعمق التأثير ، لما تتسم به من صدق واقعى وصدق فنى ، وهى نموذج للمستوى الرفيع الذى بلغه مفدى زكريا فى مسيرته الإبداعية ، وتنتمى القصيدة فى نسجها وصورها إلى المدرسة الكلاسيكية الجديدة التى رادها^(٢) أحمد شوقى وحافظ إبراهيم بعد محمود سامى البارودى ، وتميزت بأسلوبها الذى ينحو نحو الرومانسية ، ويوظف مفردات الطبيعة كما يصور خلجات النفس الشاعرة :

أَنْتَ أَهْمَتْنِي وَمَا زِلْتُ طِفْلاً

أَيُّهَا الشَّعْرُ آيَةُ التَّوْحِيدِ

(١) ما انفك : لا يزال .

(٢) رادها : كان رائداً لها ومؤسساً .

وتغنيت منذ فَجَّرَ شبابى

بالتحام القوى ودغم الجهود

لَمْ أَزَلْ صَادِحاً عَلَى كُلِّ غُصْنٍ

مِنْ دُرَى الْمَغْرِبِ الْكَبِيرِ الْعَتِيدِ^(١)

عاشقاً كل ما به كُـلٌّ مِنْ فِيهِ

وَمَنْ فَوْقَهُ وَمَنْ بِاللُّحُودِ

مَغْرِبِي جَنَّةٌ أَفَى جَنَّةِ اللَّهِ

سِوَى كُلِّ صَالِحٍ وَسَعِيدٍ ؟

وَإِذَا مَا مَدَحْتُ قَوْمِي أَلَيْسُوا

مِنْ دَمِي ؟ مِنْ تَرَابِ أَرْضِ جُدُودِي ؟

(١) صادقاً : مغنياً شادياً . دُرَى : جمع ذُرَّة ، وهى أعلى الجبل وغيره من الأمكنة .

يقف مفدى زكريا فى موقع الصدارة من شعراء الجزائر من حيث وفرة إنتاجه وجودته ، وعلى الرغم من جهوده فى المجال الحزبى ، حيث انخرط - كما بينّا - فى أكثر من حزب ، وفى ساحة الصحافة تحريرًا وإدارة ، فقد واصل دون انقطاع مسيرته الشعرية طوال حياته ، وفى مختلف العهود ، فنظّمه قبل الثورة للتحريض عليها ، وفى أثنائها ، وبعد الاستقلال ، وتعددت المواطن التى وُلدت فيها قصائده حتى شملت بلاد المغرب العربى الثلاثة : الجزائر والمغرب وتونس . وكانت حصيلة هذا العطاء الفنى الغزير والمتنوع فى قلبه وإيقاعه ومحتواه ثلاثة دواوين هى : (اللهب المقدس) سنة ١٩٦١ ، و (تحت ظلال الزيتون) سنة ١٩٦٥ ، و (من وحى الأطلس) الذى نُشر قبل وفاة الشاعر بعام ، أى فى سنة ١٩٧٦ ، وملحمة شعرية هى (إلباظة الجزائر) سنة ١٩٧٢ .

ويعد ديوان (اللهب المقدس) أهم وأشهر دواوينه ، باعتباره ديوان ثورة التحرير الجزائرية ، فمن وحيها صاغ مفدى زكريا الأناشيد والقصائد التى تضمناها . وهو يحظى بمكانة خاصة فى الشعر الجزائرى الحديث ، ممّا جعله موضعًا لفخار المثقفين الجزائريين عامة ، والأدباء والباحثين والنقاد خاصة ، فأقبلوا عليه حفظًا ودراسة ، كما تُرجمت بعض قصائده إلى اللغة الفرنسية .

ويخص مفدى زكريا ديوانه هذا بمشاعر الاعتزاز والإيثار ، لأنه نبض قلبه كثائر ، وآية عبقريته كشاعر ، وقد وصفه - فى حديث صحفى - بأنه

واقع ، وتاريخ حرب ، وعصارة قلب شاعر عاش أحداث بلاده في السجون والمعتقلات ، وشَهِدَ زُؤوسَ الفدائيين تُحْصَدُ بِالْمَقْصَلَةِ في ساحة سجن بربروس الرهيب . وافتتح الديوان بكلمة الإهداء الآتية ، والتي نتبين منها نبوغه في الكتابة الثرية أيضًا ، كما نتبين بجلاء نزعته الثورية وقوة عاطفته الوطنية :

(إلى الدقيقة الواحدة من فاتح نوفمبر ١٩٥٤ ..)

إلى أول إصبع جزائرية حَرَكَهَا الْأَرْلُ ، وضغط بها القَدْرُ الرابض على زناد البعث لتطلق القصيدة المسحورة الأولى ، فتسعر^(١) « اللهب المقدس » في دروب بلادى الحاملة ، وأحراشها السَّكْرَى ، ورمالها العَطَشَى ، وجبالها الغَضْبَى ..

أهدى ذَوْبٌ كَبِدٍ تَحْتَرِقُ فِي أَتُونٍ^(٢) « اللهب المقدس » .

وَتَلَّى هذا الإهداء كلمة أخرى للشاعر يقول فيها : (لم أَعْنِ^(٣) في « اللهب المقدس » بالفن والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية .. وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المَطْلُولَةِ^(٤) .. والشعر الحق - في نظري - إلهامٌ لا فَنٌ ، وعفوية لا صناعة) . ثم يندد^(٥) بالشعراء الذين (رُبَّمَا لا يجدون في الديوان ما يشبع غرائزهم المشبوبة في جحيم النهود والبراعم والفساتين) . ويشيد بالشعراء الذين (سيجدون فيه صِلَةً رَاحِمٍ وَتُقَى بَعَزُ أَجَادِهِمْ ، وتجاوزًا صادقًا مع مشاعر العروبة ، كما

(١) أى : تزيده اشتعالا .

(٢) أى : الموقد .

(٣) لم أَعْنِ : لم أهتم .

(٤) المِثْلَةُ : الندبة .

(٥) يندد : يشجب ويدين .

سيجد فيه زُؤَادَ التجديد الرصين ما يدعم عقيدتهم في أن عمود الشعر العربى - غير المغموز النسب - يبقى شاخًا أمام أى تجديد في التعبير والتفكير في حدود الشخصية الذاتية لِللُّغَةِ التى صمدت في وجه الزمن) .

وبعد ذلك الإهداء وتلك الكلمة نص رسالة كان قد أرسل بها سليمان صلاح الدين (عُرف فيما بعد باسم الدكتور سليمان الشيخ) إلى أبيه الشاعر من ساحة الشرف في أول نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، وهى رسالة بليغة فياضة بأنبل المعانى ، إذ تعبر عن واجب الكفاح في سبيل الوطن وعن البر بالوالدين .

ويضمُّ ديوان (اللهب المقدس) أربعًا وخمسين (٥٤) قصيدة ، منها سِتُّ قصائد بعنوان : (من أعماق بَرَبْرُوس)^(١) ، وعشرة (١٠) أناشيد بعنوان (تسابيح الخلود) وتسع وعشرون (٢٩) قصيدة بعنوان : (نار ونور) ، وثلاث (٣) قصائد بعنوان : (تنبؤات شاعر) ، وست (٦) قصائد بعنوان : (فلسطين على الصليب) . وتعد القصيدة الأولى وهى (الذبيح الصاعد) رائعة الديوان ودُرَّتُهُ ، وإن كانت معظم القصائد الأخرى لآلِء من الشعر . ويقول مفدى : إنه نَظَّمَ هذه القصيدة بسجن بربروس في الهزيع الثانى من الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد نُقِدَ فيه الحُكْمُ بالمقصلة ، وهو أحمد زبانا ، وذلك ليلة ١٨ يولية ١٩٥٥ .

وتستحق هذه القصيدة أن تُدرَج في عِدَادِ مآثورات الشعر العربى الحديث ، لا في الجزائر فقط ، بل في البلدان العربية جميعًا ، لجلال موضوعها - وهو رثاء شهيد - وسُمُو معانيها ، وجمال صياغتها ، ولقوة

(١) بربروس : سجن رهيب كان المستعمرون الفرنسيون يُودَعُونَ فيه أحرار الجزائر وثوارها ، ويُنفَذُونَ فيه أحكام الإعدام بالمقصلة ، وهى الآلة الجهنمية التى أعادوها إلى الجزائر بعد أن أوقف استعمالها في فرنسا منذ حقبة طويلة من الزمن .

الشعور الذى أَوْحَى بها ، وَجَّعها بين الأصالة والمعاصرة فى انسجام وتوافق ، فالألفاظ تتسم بالسهولة ، والتراكيب جَزْلَةٌ ، والعبارات مُحْكَمَةٌ النسيج ، وقد وُفِّقَ الشاعر فى اختيارِ وَزْنٍ ذى غنائية رائعة ، وهو وزن « الخفيف » وكأنه يزف الشهيد إلى دار الخلود ، والقافية رقيقة كانسياب الجدول ، وإن كانت تَشِفُّ عن أَسَى دفين ، أو قافية جياشة ، عالية النغم ، وذلك حسب المعنى الذى يريد الشاعر توصيله إلينا ، والإحساس الذى ينمُّ عنه هذا المعنى ، فهو حيناً يُعَبِّرُ عن الجمال الروحى للشهيد ، ويصور حيناً آخر ثورته على السِّفَّاحِينَ الذين ارتكبوا أفدح الجرائم ، وهى قتل المدافعين عن حق وطنهم فى الحرية والاستقلال ، وهو حق جاءت به الشرائع السماوية ، وأقرَّته المعاهدات والمواثيق الدولية ، وفى مقدمتها ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ ، والإعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ .

وتذكرنا هذه القصيدة بمرثيات الشهداء ذات المستوى الشعرى الرفيع فى الأدبين : العربى والعالمى ، ومنها قصيدة أبى الحسن الأنبارى التى يرثى فيها ثائراً من أحفاد الحسين أبى الشهداء كان قد خرج على بنى أمية فى عهد خلافتهم ، فقتلوه وصلبوه تنكيلاً بِأَلِ البيت المطالبين بحقهم فى الخلافة ، وعِبْرَةً لغيرهم . وتتفق قصيدة مفدى مع قصيدة الأنبارى فى الرؤية الفنية ، إذ تخلع على المَرْثِىِّ الذى قتلته السلطة المستبدة صُورَةَ الإنسان العظيم الذى يستشهد دفاعاً عن وطنه أو عقيدته ، وهى صورة تتسم بالبطولة والقداسة معاً . فالشاعر أبو الحسن يبدأ مرثيته بقوله :

عُلُوٌّ فى الحَيَاةِ وفى المَمَاتِ كَحَقِّ أَنْتِ إِحْدَى المَعْجَزَاتِ

ويعنى ذلك - فيما يتصوره الشاعر - أَنَّ وَضْعَ جُثْمَانِ الشهيد فى مكانٍ عالٍ مثل حائط أو شجرة لا يَخْفِضُ من قدره ، بل يزيده رفعة ويعلو من منزلته ، وذلك على خلاف ما أراده قاتلوه من تحقيره فى نظر العابرين . ويدل هذا التصوير على ما يقصد إليه الشاعر مِنْ نَفْثِ العار عن الشهيد

وإحاقه بمن قَتَلَهُ . ومطلع قصيدة مفدى زكريا قريب من هذه الصورة ، وهو قوله :

قَامَ يَخْتَالُ كالمسيحِ وَثِيْدًا يَتَهَادَى نَشْوَانٌ يَتَلَوُ النَّشِيْدَا

فالمعنى أن أحمد زبانا شهيد ثورة التحرير قد سار رابط الجأش إلى المقصلة ، ثم صعد على دَرَجِها العالى ، وكأنَّهُ المسيح إذ رَفَعَهُ الله إلى السماء ، وكان اليهود قد حكموا عليه بالقتل والصلب ، ولذلك وَصَفَ مُفَدًى هذا البطل بالذبيح الصاعد ، وجعل هذا الوصف عنواناً لقصيدته ، ثم وصفه فى البيت التالى بالملك والطفل ، لأن من صفات المناضل الثائر البراءة والصدق ، وصفاء النفس من الأكدار والخطايا التى تتمثل فى حُب النفس ، والامتناع عن التضحية فى سبيل الوطن أو الإنسانية .

وعَوْدًا على بَدْءِ شَبَّةِ الشاعرِ البطل وهو على منصة الإعدام العالية بالروح التى تسمو إلى السماء فى ليلة القدر ، وبالمُؤَدَّنِ الذى يصعد إلى سارية المسجد ليدعو إلى إقامة الصلاة . ومثلما عقد مقارنة بينه وبين المسيح فى السمو إلى السماء ، قارنه أيضًا بالنبي موسى الذى كَلَّمَ الله ، فقال : إِنَّ المجد قد دعاه فاعتلى جبال المقصلة ، وامتنطى مذبح البطولة والفداء ، وطَارَ به جبريلُ عليه السلام إلى جَنَاتٍ عَدْنٍ التى وَعَدَ الله بها المتقين .

ويمضى الشاعر فى وصف الشهيد وهو على حافة الموت ، فيقول : إنه أطلق صرخة دَوَّتْ فى الآفاق وَأَصَمَّتْ ^(١) سَمْعَ العدو ، إذ هتف : (الله أكبر وَلَتَحَيَّ الجزائر حرة) . ثم يصور مفدى زكريا المارك التى خاضها الثوار المؤمنون برهم ، والأوفياء لبلادهم ، فى مواجهة السفاحين الطغاة الغاصيين . ويبلغ من قوة التصوير أن القارئ يشعر كأنه يشاهد تلك المارك التى اشترك فيها الشباب والكهول من خيرة المجاهدين ، ودارت فى قمم الجبال الوعرة وسفوحها .

(١) أَصَمَّتْ : أَصَابَهُ بِالصَّمَمِ .

ويشيد شاعر الثورة بالصَّبايا الجزائريات اللاتي انضممن إلى جيش التحرير ، وَقُمْنَ بأعمالٍ فداية ، مثل « جميلة بوحريد ، وجميلة بوعزة ، وحسيبة » أَوْ قُمْنَ بإسعاف المصابين وتضميد جراحهم .

ويصُبُّ مفدى زكريا جامَ غضبه على دولة الاستعمار التي لطخت جبين شعبها وتاريخه ووجه الإنسانية بما ارتكبت من جرائم وحشية تَعَفُّ عنها الوحوش الضارية ، من تقتيل وترويع للآمنين ، وسجن للأبرياء الذين لا ذنب لهم إلا أنهم ثاروا لتحرير بلادهم ، ومن تجويع للشعب بعد أن نهبت خيراته واستحلت حرَماته . ويتضرع إلى السماء كي تنتقم من البغاة وتنتصر لأصحاب القضية العادلة ، ويصيح بالأرض أَنَّ ثُورَى مع المجاهدين وشَتَّى شَمَلِ القوم الظالمين .

مظاهر التأثير بالقرآن الكريم والتراث :

في هذه القصيدة خاصة ، وفي شعر مفدى زكريا عامة ، مظاهر واضحة للتأثر بالثقافة العربية الإسلامية التي نشأ في ظلها ، فهو يَمْتَحُ (١) من المعين القرآني كثيرا من الألفاظ والعبارات ، ويقتبس من قصصه ، ويُثْرِ قصائده بِصُورٍ مُسْتَمَدَّةٍ من كتاب الله الكريم ، كما يستلهم معانيه ، ومن ذلك قوله في رثاء الشهيد أحمد زبانا : (زعموا قَتَلَهُ وما صلبوه) ، فهو مقتبس من الآية الكريمة التي نزلت في شأن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (٢) . وقوله : (يا سماء اصقعي الجبانَ ويا أرض ابلعي القانِعَ الخنوع البليدا) مقتبس من الآية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ (٣) . أمَّا تضمين القصيدة

بعض ما جاء في قصص القرآن فإنه يتجلى في تشبيه الشهيد بالنبيِّ عيسى وموسى ، كما يذكر الشاعر جبريل عليه السلام ، ويستعمل كلمة المعراج ، ويزين صياغته بعبارات تراثية ، مثل المثل الشُّرود :

(وسرى في فَمِ الزمان زبانا مثلاً في فَمِ الزمان شُروداً) (١) .

ولا تقتصر مصادره الثقافية على التراث والتاريخ العربي الإسلامي ، بل تمتد لتشمل التاريخ عامة في قديمه وحديثه ، فيذكر واقعة أسر الملك لويس التاسع في أثناء غارته الصليبية على مصر ، وإيداعه في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة مقيداً في الأغلال ، وذلك في قوله - معياراً فرنسا :

(وجعلنا لجندها « دار لقمان » قبوراً ملء الثرى ولحوداً) .

كما يذكر مقولة « هوشى منة » محرر الهند الصينية من الاستعمار الفرنسي : (الاستعمار تلميذ بليد لا يتعظ من الدروس) وذلك في الأبيات التي أورد فيها ذكر هذا الزعيم ثم ، وَجَّه الخطاب إلى فرنسا ساخرًا : (نَسِيتْ دَرْسَهَا فرنسا فلَقْنَا فرنسا بالحرب دَرْسًا جديدًا) .

بنت الجزائر أهوى فيك طلعتها :

كتب الشاعر قصيدة بهذا العنوان ، كما جعل لها عنواناً ثانياً هو (زلزلة العذاب رقم ٧٣) ، وهى إحدى زنازين سجن بربروس ، وقد رُجَّ به فيها سنة ١٩٥٥ ، فجاشت في أعماقه المواجه ، وكتب هذه القصيدة التي مطلعها :

(١) استعمل هذه العبارة أبو تمام في رده على جلساء الخليفة المعتصم حين وصفه بقوله

إقدام عَمَرُو في سَاحَةِ حاتم في جِلْمٍ أَحْقَفَ في ذكاء إيايس

فاعترضوا عليه قائلين : ما زدت على أن شُهِيتَ أمير المؤمنين بضعاليك العرب ، فارتحل البيتين الآتين :

لا تُنْكروا ضَرْبِي له مَنْ دُونَهُ مثلاً شُروداً في الندى والبأس

فَاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَ بِسُورِهِ مثلاً مِنَ المُشْكَاةِ والبُئْرَاسِ

مشيراً بهذا إلى الآية الكريمة : ﴿ الله نُورُ السموات والأرض ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ الآية [سورة النور - الآية ٣٥] .

(١) مَتَحَ الشيء : نَزَعَهُ واستخرجه ، والمراد هنا : يستمد .

(٢) من الآية ١٥٧ من سورة النساء .

(٣) من الآية ٤٤ من سورة هود .

سَيَّانَ عِنْدِي مَفْتُوحٌ وَمُنْعَلِقٌ

يا سَجْنُ بَابُكَ أَمْ شُدَّتْ بِهِ الْحَقُّ (١)

أَمْ السَّيَّاطُ بِهَا الْجَلَادُ يُلْهِئُنِي

أَمْ خَازِنُ النَّارِ يَكُونُنِي فَاصْطَفِقُ (٢)

وهو يعبر عن صلابته وشموخه برغم ما يلقاه من أهوال السجن ، لأنه فُطِرَ (٣) ونشأ مناضلاً لا يضعف مهما قست عليه الخطوب ، وقد تعود أن يُلقَى به في عالم السدود والقيود ، فلا يرهب السجن ، بل ينام ملء جفونه كما قال المتنبي (٤) . وتنطلق روحه برغم الأغلال - سابحة في ملكوت الله ومحراب الحرية ، ويأنس بها ينظم من قصائد وأناشيد :

يا سَجْنُ مَا أَنْتَ ؟ لَا أَخْشَاكَ تَعْرِفُنِي

مَنْ يَحْدِقُ الْبَحْرَ لَا يُحْدِقُ بِهِ الْغَرَقُ (٥)

إِنِّي بَلَوْتُكَ فِي ضَيْقٍ وَفِي سَعَةٍ

وَذُقْتُ كَأْسَكَ ، لَا حِقْدٌ وَلَا حَنَقُ (٦)

أَنَا مَلَأْتُ جَفُونِي غِبْطَةً وَرِضًا

عَلَى صَيَاصِيكَ ، لَا هَمٌّ وَلَا قَلَقُ (٧)

(١) الخلق : الحلقات الحديدية التي توصل بها الأبواب . شُدَّتْ : ضُبِّتْ وأُحْكِمَتْ .

(٢) يقال : الريح تَصْفِقُ الأشجارَ فتصطفق ، أى تضطرب .

(٣) فُطِرَ : خُلِقَ .

(٤) أَنَامَ مَلَأَ جَفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَزَاءً وَيَخْتَصِمُ

(٥) يَحْدِقُ الْبَحْرَ : يَحِيدُ السَّاحَةَ فِيهِ . يُحْدِقُ بِهِ : يَحِيطُ بِهِ .

(٦) بَلَوْتُكَ : اخْتَبَرْتُكَ وَعَرَفْتُكَ . الْحَقُّ : الْغَيْظُ .

(٧) الصَيَاصِي : الْحَصُونُ .

طَوْعَ الْكَرَى ، وَأَنَاشِيدِي تَهْدِدُنِي

وِظْلَمَةُ اللَّيْلِ تُغْرِينِي فَأَنْطَلِقُ (١)

وَالرُّوحُ تَهْزَأُ بِالسَّجَّانِ سَاخِرَةً

هِيَ هَاتِ يُدْرِكُهَا أَيَّانَ تَنْزَلِقُ (٢)

تَنْسَابُ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ سَابِحَةً

لَا الْفَجْرُ إِنْ لَاحَ يُفْشِيهَا وَلَا الْعَسَقُ (٣)

ويتنقل شاعرنا من هذا اللحن الشجى الذى يصف فيه مشاعره وهو رهين السجن إلى لحن رومانسى حالم ، إذ يتذكر ليلاه واسمها « سَلْوَى » فيناجى طيفها مناجاة تقطر عُذوبة وَرَقَّة ، فالسجان يعجز عن منع طيف المحبوب من زيارة العاشق ، أو منع الحلم عن طرق باب المُحِبِّ وهو نائم . ويبلغ مُقَدِّى في هذا اللحن ذروة في التعبير عن الحب والذكريات . ومثل رواد الشعر الوجدانى يوظف مفردات الطبيعة ، كالشمس في طلوعها وغروبها ، والموج في هديره وفي ارتطامه بالصخر ، والنجوم ، والشفق ، والليل ، ويمزج صورها في مختلف أحوالها بآيات الجمال التى حبَّاه الله الحبيبة بها (٤) .

وَمِنْ عَشْرِ الْمَرْأَةِ يَتَحَوَّلُ مُقَدِّى زَكْرِيَا إِلَى عَشَقِ الْوَطَنِ ، فَيُبَدِّعُ أَيْدِإِاعَ ، لِأَنَّ الْجَزَائِرَ هِيَ حَبِيبَةُ الْأَوَّلِ وَحَبِيبَةُ الْآخِرِ ، وَهِيَ سِرُّ حَيَاتِهِ وَمَجْلَاهَا ، وَنَبْعُ إِهَامِهِ ، وَفِي سَبِيلِ تَحْرِيرِهَا ضَحَّى بِحَرِيَّتِهِ ، فَعَرَفَ السَّجْنَ ، وَلَوْ قَتَلَهُ الْمُسْتَعْمَرُ لِلْقِيِّ رَبِّهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ بِتَضَحُّيَّتِهِ ، لِأَنَّ مَالَ الشَّهَدَاءِ إِلَى الْفَرْدُوسِ .

(١) الْكَرَى : النَّوْمُ .

(٢) أَيَّانَ : حَيْثُمَا .

(٣) يَفْشِيهَا : يَكْشِفُ سِرَّهَا .

(٤) انْظُرِ الْآيَاتِ فِي آخِرِ الْكِتَابِ ضَمِنَ الْمُخْتَارَاتِ .

فَلَنُصْغِ إِلَى غِنَاءِ الشَّاعِرِ لَوْطَنِهِ :

يَا لَائِسَى فِى هَوَاهَا إِنَّمَا قَبَسٌ

مِنَ الْجَزَائِرِ وَالْأَمْثَالِ تَنْطَبِقُ (١)

بَنَتْ الْجَزَائِرَ أَهْوَى فَيْكِ طَلَعَتْهَا

فَكُلُّ مَا فَيْكِ مِنْ أَوْصَافِهَا خُلِقَ (٢)

أَحِبُّهَا مِثْلَ حُبِّ اللَّهِ أَعْبُدْهَا

أَمَنْتُ بِاللَّهِ لَا كُفْرٌ وَلَا نَزَقٌ (٣)

قَلْبُ الْعَرُوبَةِ لَمْ يَعِصِفَ بِنَخْوَتِهَا

عَسْفٌ وَلَا نَالٌ مِنْ إِيْمَانِهَا رَهَقٌ (٤)

ويتصاعد النغم أَخَذًا متدفقًا إذ يتطرق الشاعر إلى الحدث العظيم ، وهو ثورة التحرير التى كانت حلمًا ثم أضحت حقيقة فاقت بروعتها الأساطير ، إذ ضحى شعبها - ولم يكن يزيد عدده على ستة ملايين نسمة - بمليون ونصف مليون من الأنفس التى سالت دماؤها الزكية على مذبح الحرية فداءً للأرض والعرض والعقيدة والكرامة .

تلك هى المعانى التى طاف حولها الشاعر وبرقت فى قريحته ، فحوّلها إلى قطرات من دمه ، وخفقات من قلبه ، ولآلىء من شعره الصداح المتوهج ، مَجَّدَ بها الأبطال ، وَخَلَّدَ الشهداء ، وَخَصَّبَ بها وجوه الأعداء الذين عجزت أحدث أنواع الأسلحة الفتاكة التى حشدوها عن قهر عزيمة شعب أراد

(١) هواها : هوى سلوى حبيبة الشاعر . قبس : شعلة من نار ، والمقصود هنا شعلة من نور .

(٢) الخلق : الطبيعة والسياسة ، أى الصفة التى تُخَلِّقُ مع الإنسان .

(٣) النزق : الخفة والطيش .

(٤) الرهق : التعب أو الظلم .

الحياة ، فكان لابد للقيّد أن ينكسر - كما يقول أبو القاسم الشاذلى - وَضَحَى بأعز الأبناء ، لأنه يعلم أن للحرية الحمراء بابًا ، بكل يَدٍ مضرجة يدق - كما يقول شوقى أمير الشعراء - أما مفدى زكريا فهو يقول :

نَادَى الْمَنَادِى إِلَى التَّحْرِيرِ يَدْفَعُهَا

فَاسْتَصْرَخَتْ مِنْ قِيودِ الْحَجَرِ تَنْعَتُ (١)

ثَارَتْ عَلَى الظُّلَمِ مِثْلَ السَّيْلِ جَارِفَةٌ

فَلَا الْفِيَالِقُ تُشْنِيهَا وَلَا الْفَرْقُ

جَيْشٌ إِلَى النَّصْرِ تَحْدُوهُ مَلَأْنَكَةُ

مُسَوِّمُونَ بِمَوْجِ الْمَوْتِ يَنْدَفِقُ (٢)

وَالشَّعْبُ يَسْبَحُ لِلْعَلْيَا عَلَى دَمِهِ

وَاللَّتَّبَرُّعُ بِالْأَرْوَاحِ يَسْتَبِقُ

لَمْ يُثْنِهِ دُونَ إِدْرَاكِ الْمُنَى رَهَقٌ

وَإِنْ هُمْ أَحْرَقُوا بِالنَّارِ أَوْ شُنِقُوا

وَيَخَاطَبُ فَرَنْسَا الْمُسْتَعْمَرَةَ مُفَنِّدًا دَعْوَتَهَا إِلَى إِلْقَاءِ الْجَزَائِرِيِّينَ السِّلَاحَ وَوَقْفَ

الْحَرْبِ فِي مَقَابِلِ مَدَّهِمْ بِهَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَقْوَاتٍ ، وَمَكْدَبًا وَعُودَهَا الْبَرَاقَةَ

الْخَادِعَةَ بِمَنْحِ الشَّعْبِ بَعْضَ حَقُوقِهِ إِذَا تَخَلَّى عَنِ الْمَجَاهِدِينَ :

وَضَعُ السِّلَاحِ أَحَادِيثَ مُلَفَّقَةً

خُرَافَةً صَاغَهَا لِلْكَئِيدِ مُحْتَلِقٌ

(١) الحَجَرُ : المنع من التصرف .

(٢) مُسَوِّمُونَ : ذوو علامات تميزهم ، والصورة والتعبير مقتبسَانِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

لا تَشْغَلِينَا بِأَثْوَابٍ وَأَرْغَفَةٍ
أَهْدَأُنَا الْمَجْدُ ، لَيْسَ الْخَبْرُ وَالْخِرْقُ
فَكَمْ قَطَعْتَ عَهْدًا أَصَبَحْتَ حُلُمًا
حَتَّى غَدَوْنَا بِغَيْرِ الْحَرْبِ لَا نَثِقُ
حَقُوقُنَا بِدَمِ الْأَحْرَارِ نَكْتُبُهَا
لَا الْحَبْرُ أَصْبَحَ يَغْنِينَا وَلَا الْوَرَقُ
لَا تَطْمَعِي النَّصْرَ مِنْ جُنْدٍ سَمَاسِرَةٍ
أَيُّحِرْزُ النَّصْرَ مَا جُورَ وَمُرْتَرَقُ ؟ !

قصائد في ظلمات السجون :

توالت القصائد التي نَظَمَهَا مفدى زكريا بين قضبان السجون حتى بلغ عددها ثلاث عشرة قصيدة ، ومنها قصيدته (وتعطلت لغة الكلام) (١) ، إذ أوحى إليه بها وهو في سجن « بربروس » بمناسبة خذلان الأمم المتحدة في دورتها الثالثة عشرة سنة ١٩٥٧ للشعب الجزائرى وقضيته العادلة ، مما حدا به إلى الاعتماد على الكفاح المسلح كسبيل وحيد للتحرر ، وعدم الاعتماد بقرارات الأمم المتحدة وتوصياته ، سواء أكانت مؤيدة للحق أو منكرة له ، أوساكتة عنه . وقد عبر « مُفَدَّى » في عنوان قصيدته وفي مضمونها عن هذا المعنى ، وهو عدم جدوى ما يدور من محادثات ومداولات في أروقة المنظمة الدولية ، فكلها كلمات جوفاء ، وقد انقضى العهد بها وحن وقت الفعل ،

(١) هذا العنوان مقتبس من قول شوقي في قصيدة (يا جارة الوادى) إذ يقول :

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك

وهناك شواهد كثيرة على تأثر مفدى بشعر شوقي .

وهو مواصلة حرب التحرير . ومنذ مطلع القصيدة تبدو هذه الدعوة جلية ، إذ يقول الشاعر :

نَطَقَ الرِّصَاصُ فَمَا يُبَاحُ كَلَامُ

وَجَرَى الْقِصَاصُ فَمَا يُتَاحُ مَلَامُ !

وكان أبو تمام قد طرق هذا المعنى من قبل ، وذلك في قصيدته عن معركة عمورية التي خاضها الخليفة العباسى المعتصم بالله (١) ومطلعها :

السيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ

فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ (٢)

يَبْضُ الصَّفَائِحُ لَا سَوْدَ الصَّحَائِفِ فِي

مُتَوْنِهِنْ جِلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ (٣)

فتأثر مفدى زكريا بهذه القصيدة ، واقتبس منها كما يبدو في هذين البيتين :

السيفُ أَصْدَقُ لَهْجَةٍ مِنْ أَحْرَفِ

كُتِبَتْ وَكَانَ يَبَاقُهَا الْإِبْهَامُ

إِنْ الصَّحَائِفَ لِلصَّفَائِحِ أَمْرُهَا

وَالْحَبْرُ حَرْبٌ وَالْكَلامُ كَلَامُ

(١) يروى أن هذا الخليفة قد علم باستغاثة امرأة عربية به حين صاحت (وَامْتَعْصَاهُ) بعد أن عبث بملابسها جندى من الروم ، فهب على رأس جيشه لتبيتها ، فكانت الحرب التي انتصر فيها العرب على الرومان .

(٢) الأبناء : جمع نبأ وهو الخبر ، وقد حكوا أن المنجمين كانوا حذروا المعتصم من فتح مدينة (عمورية) في هذا الأوان ، وقالوا : إنا نجد في الكتب أنها لا تفتح إلا في وقت نُضْجِ التين والعنب ، فلم يسمع الخليفة لقولهم .

(٣) يبض الصفائح : السيوف . سود الصفائح المكتوبة . الريب : الشكوك والظنون .

ومن سجن « البرواقية » نظم الشاعر قصيدة (وقال الله) مُخَلِّدًا الذكري
الثالثة للثورة الجزائرية ، وألقاها أحد الأدباء بالنيابة عنه في مهرجان
«الذكري» الذي أقيم بتونس في أول نوفمبر ١٩٥٧ ومطلعها :

دَعَا التاريخَ ليلَكَ فاستجابا

(نَقْمِيٌّ) هَلْ وَفَيْتَ لَنَا النَّصَابَا

وفيها يُشَبِّهُ الشباب الذين انضموا إلى كتائب المجاهدين بالملائك التي
أنزلها الله لمناصرة المؤمنين ، وهو اقتباس من القرآن الكريم مرة أخرى ، إذ
سبق في قصيدة (بنت الجزائر أهوى فيك طلعتها) . كما استوحى ﴿ ليلة
الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرِ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .
واستعمل الصفات التي نعت القرآن بها حُورَ الجنة وهو يتحدث عن
الفتيات اللاتي انخرطن في سلك التحرير :

زَكَّتْ وَثَبَاتُهُ عَنْ أَلْفِ شَهْرٍ

قضاها الشعبُ يَلْتَحِفُ السَّرَابَا (١)

تَجَلَّى ضَاخَكِ الْقَسَمَاتِ تَحْكِي

كواكِبُهُ قَنَابَلُهُ هَابَا (٢)

بِنَاشِئَةٍ هُنَاكَ أَشَدَّ وَطْأً

وَأَقْوَمَ مَنْطَقًا وَأَحَدًا نَابَا

مَلَائِكُكَ بِالْفَوَاتِكِ نَازِلَاتٌ

بِإِذْنِ اللَّهِ أَرْسَلَهَا خِطَابَا

(١) الخطاب موجه إلى « نوفمبر » رمز الثورة ، إذ قامت في اليوم الأول منه سنة ١٩٥٤ . يلتحف السراب
أى يعيش في وهم ، وهو وعد فرنسا بمنح الشعب قدرًا من الاستقلال ، وجاءت الوثبة الثورية
فقطت على هذا الوهم .

(٢) اللهاب : اتقاد النار .

وَهَزَّتْ « ثَوْرَةُ التَّحْرِيرِ » شَعْبَا

فَهَبَ الشَّعْبُ يَنْصَبُ انْصِبَابَا

تَنْزَلُ رَوْحُهَا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ

بِأَحْرَارِ الْجَزَائِرِ قَدْ أَهَابَا

وَبَرَزَتْ الْكَوَاعِبُ قَاصِرَاتٍ

نُحْرُنَ يَخْضَنَ لِلْمَوْتِ الْعُبَابَا (١)

ومن القصائد التي كتبها في السجن قصيدة (حروفها حمراء) عام
١٩٥٧ ، وأخرى بعنوان (اقرأ كتابك) في ذلك أيضًا بمناسبة الذكرى الرابعة
للثورة ، وألقيت بالنيابة عنه في إذاعة (صوت العرب) بالقاهرة ، وقد
ضمَّنها أبياتًا رائعة في تمجيد مصر وشعبها ، ومنها قوله :

يَا مِصْرُ يَا أُخْتَ الْجَزَائِرِ فِي الْهَوَى

لَكَ فِي الْجَزَائِرِ حُرْمَةٌ لَنْ تُقْطَعَا

وَتَشَوُّقَاتٌ مِنْ حَبِيبِ مَوْجِعٍ

مَا أَنْفَكَ صَبًّا بِالْكَنَانَةِ مَوْلَعَا

وقد تضمن ديوان (اللهب المقدس) قصائد أشاد فيها الشاعر بالشعب
التونسي ورئيسه « الحبيب بورقيبة » : وأدان الفرنسيين لاعتدائهم على مدينة
(بنزرت) الساحلية ، وقصائد مديح للحسن الثاني ملك المغرب ، وثناء
لأبيه الملك محمد الخامس .

ومن روائع قصائده تلك التي كتبها بعنوان (فلسطين على الصليب) ،

(١) برزت : ظهرت . الكواعب : الصبايا . قاصرات : جمع قاصرة ، وهى المرأة التى لا تمتد بصرها إلى
غير زوجها .

إلياذة الجزائر

وأخرى بعنوان (معجزة الصانع) ، وقد استوحاها من زيارته لبنان .
وقصيدته (رسالة الشعر في الدنيا مقدسة) التى ألقاها باسم الجزائر فى
مهرجان الشعر بدمشق سنة ١٩٦١ .

وقد بلغ « مُفَدَّى » مستوى رفيعاً من التجديد الشعرى فى قصيدته (وليد
القنبلة الذرية) فى صحراء الجزائر ، وذلك من خلال تصوير ما أصاب
طفلاً صغيراً من فقد البصر وتشويه جسمه بسبب الآثار المدمرة لتلك
القنبلة التى ألقته فرنسا .

وهكذا وَاكَّبَ شاعر الثورة الجزائرية الأحداث التى وقعت فى بلدان
المغرب العربى ، وتغنى بالعروبة والإسلام . كما صور جمال الطبيعة فى بلاده
وفى مصر والشام .

وكما استلهم الحربَ حرار أنغامه ، وهبَ الحب أجمل معزوفاته ، فهو
شاعر كبير مستكمل أدوات الإبداع ، إذ كتب باقتدار ينبىء عن غزارة
ثقافته وسعة أفقه فى معظم الأغراض التى طرقها الشعر العربى قديمه
وحديثه .

الساسة الذين يضعون الخطط الاستعمارية يبررون الاستيلاء
على بلدان القارة الإفريقية بأن الأوروبيين قد جاءوا لتمدين
أهلها وتحضيرهم ، فقد كانت فى زعمهم مناطق متخلفة لا
حضارة لها . وما وفد الاستعمار إلا لإنقاذها من وهدة هذا التخلف .
فالرجل الأبيض فى نظرهم هو مبعوث العناية الإلهية وحامل رسالة سامية ،
وهى إخراج الإفريقيين من الظلمات إلى النور ألا ساء ما يأفكون^(١) . والحق
أن الدافع الأساسى للاستعمار هو نهب ثروات إفريقيا واستغلال أهلها
بتسخيرهم فى زراعة الأراضى التى اغتصبها الأوروبيون ، واستخراج المعادن
من المناجم . وليس أدل على ذلك من استجلاب الدول المستعمرة كثيراً من
مواطنيها إلى الجزائر ، وتمكينهم من السيطرة على سهولها وروابيها الخصبة ،
وطرد أصحابها إلى المناطق القاحلة ، وقتل الذين يعلنون منهم التمرد
والعصيان ، أو الزجَّ بهم فى السجون ، أو نفيهم خارج البلاد ، أو تجنيدهم
بالإكراه فى (الليفى الأجنبى)^(٢) ضمن صفوف الجيش الفرنسى الذى
يحارب فى إفريقيا .

ودحضاً للمزاعم والافتراءات التى تُبرر الاستعمار بحث المثقفون
الجزائريون فى تاريخهم - من خلال المؤلفات التى كتبها أسلافهم ، أو تلك
التي صنفها المؤرخون الأوروبيون الذين يتسمون بالموضوعية والإنصاف ولا

(١) يأفك أى : يكذب ، والإفك الكذب .

(٢) فرقة عسكرية من أبناء المستعمرات الفرنسية كالسنغال .

يعملون في خدمة الدوائر الاستعمارية - فوجد هؤلاء المثقفون أن تاريخ أجدادهم زاخر بالأدلة التى تثبت أنهم شعب متحضر منذ القدم .

وعلى أرض الجزائر التى كانت تسمى المغرب الوسيط نشأت ممالك مستقلة ذات قوة وسلطان ، وتمتلك كثيراً من مقومات الدول الحديثة ، أى كان لها أرض ، وشعب ، وسلطة حاكمية ، ونظام قانونى ، وجيش يدافع عن حدودها . وقد أسهمت هذه الدول فى مسيرة الحضارة الإنسانية بفضل جهود علمائها وأدبائها ومفكرها .

كما أراد أبناء الجزائر الذين نهلوا من منابع العلم فى تونس أو المغرب أو مصر أو الشام والعراق ، وكذلك الذين درسوا فى فرنسا واحتفظوا بالولاء لشعبهم ، والإيمان بالحضارة العربية الإسلامية التى عاشت الجزائر تحت رايتهما وشكلت شخصيتهم - أراد هؤلاء بما كتبوا ونشروا عن تاريخهم أن يثبتوا للرأى العام العالمى المُمثل فى الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية أن شعباً هذا هو تاريخه جدير بالحصول على حريته واستقلاله ، كما أرادوا أيضاً أن يبشوا الثقة بالنفس فى آبائهم وإخوتهم من المناضلين حتى يزدادوا حماسة ، ومن المدنيين حتى يعاونوا مَنْ سار على درب الكفاح الوطنى بمختلف أشكاله .

وقد كان مفدى زكريا من طلائع هؤلاء المثقفين الجزائريين ، وواحدًا من أكبر شعرائها ، ومن ثم كتب قصيدة سميت (إلياذة الجزائر) ، هادفاً إلى بعث التاريخ الجزائرى المضى ، والإشادة به من خلال تلك القصيدة التى صيغت فى قالب الشكل الملحمى من حيث رواية الأحداث التاريخية ، وإحياء ذكرى أصحاب الأدوار البارزة فيها من قادة وحكام وعلماء وشعراء ، وتصوير بعض المعارك التى دارت بين الممالك الجزائرية وأعدائها .

ومن دوافع نظم شاعرنا لهذه الملحمة رغبته فى إثبات موهبته ومقدرته

لإدراجه فى سلك المبدعين الكبار ، وإفساح مكان له بين المبرزين منهم ، مثل أمير الشعراء أحمد شوقى الذى كتب قصيدة طويلة فى تاريخ مصر ، وقد نُشرت بعنوان (كبار الحوادث فى وادى النيل) ، ومثل أحمد محرم الذى كتب (الإلياذة الإسلامية) على غرار إلياذة هوميروس الشاعر الإغريقى . ولعل مفدى زكريا كان يتطلع إلى مباراة هذين الشاعرين المصريين الكبارين ، إذ كان الإنتاج الأدبى فى المشرق العربى يصل إلى المغرب عن طريق الصحافة .

أما المناسبة التاريخية التى حدث بالشاعر إلى التعجيل بتأليف (إلياذة الجزائر) كى تظهر فيها ، فقد حدثنا عنها المؤرخ الجزائرى الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم قائلاً : إنه فى ختام الملتقى الخامس للفكر الإسلامى ، والذى عُقد فى مدينة وهران سنة ١٩٧١ ، أعلن أن الملتقى السادس سينعقد بعاصمة الجزائر بمناسبة العيد العاشر لاسترجاع الاستقلال والذكرى الألفية لتأسيس العاصمة مع مدينتى المدية ومليانة على يدى القائد بُلكين بن زيرى ، وأن محور هذا المؤتمر الثقافى سيدور حول إعادة كتابة تاريخ الجزائر ، وتصفيته من جميع ما علّق به من شوائب وتزييف متعمد ، وأن الهدف من هذا المشروع هو معرفة ماضى الجزائر ، والاستفادة من تجاربه فى بناء الحاضر والمستقبل فى الجزائر والمغرب الكبير والعالم الإسلامى كله .

ويستطرد المؤرخ قائلاً : إن القائمين على تنظيم المؤتمر طلبوا من المناضل مفدى زكريا شاعر الكفاح الثورى المسلح ، وصاحب الأناشيد الوطنية : (من جبالنا طلع صوت الأحرار) سنة ١٩٣٢ ، و (فداء الجزائر روحى ومالى) سنة ١٩٣٦ ، و (قسماً بالنازلات الماحقات) سنة ١٩٥٦ ، و (اعصفى يا رياح) ، ونشيد الجيش الوطنى ، ونشيد الطلبة وغيرها ، أن يضع نشيداً جديداً يجمع فيه هذه الأناشيد ، ويسجل به تاريخ الجزائر منذ أقدم عصورها حتى اليوم ، مركزاً على مقاومة شعبها لمختلف أنواع الاحتلال

الأجنبي التي رُزِيءَ بها ، وعلى العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة ، وكفاح الجزائريين في سبيل استعادة ثرواتهم ومقومات شخصيتهم ، وبناء مجد جديد لأمتهم .

ولقد لَبَّى الشاعرُ النداء وتحمس لفكرته ، فعكف على نَظْم الإلياذة حتى بلغت ستمائة وعشرة من الأبيات ، وقد أنشدها مُقَدِّى في أفتاح الملتقى السادس المشار إليه يوم ٢٤ يولية ١٩٧٢ أمام حشد كبير ، منهم الرئيس هواري بومدين . وانفض الحفل ، وترددت بعده أصدااء الإنشاد . ثم واصلت الإلياذة سيرتها حتى بلغت ألف بيتٍ وبيتًا ، على غرار ألف ليلة وليلة ، مع الفارق بينهما قالبًا ومحتوى ، فليس ثمة ما يجمع بينهما إلا العدد . وما يجدر بالذكر أنها تُرجمت في حينها إلى اللغة الفرنسية بقلم الأستاذ طاهر بوشوشى ، ونشرت الترجمة وزارة التعليم الأصل والشئون الدينية ، كما نُشِرَ الأصل .

وقد قسم « مفدى » هذه الملحمة إلى جزأين ، يتضمن أولهما وصف الجمال الطبيعي للبلاد ، ويتضمن الثانى تصوير المجد التاريخي ، فكانت شهادة جديدة للتاريخ الجزائرى بما يتخلله من انتصارات وانتكاسات وآمال وآلام ، وشهادة لشاعر الفداء والفدائيين - كما وصفه المؤرخ الجزائرى . وإذا كان التاريخ هو عقل الأمة كما يقول الفيلسوف الألمانى شوبنهاور^(١) ، فإن صياغته شعراً يُثْرِى وجدانها وروحها . ويستهل مفدى زكريا ملحمة بالمقطع الآتى :

جزائرياً مطلع المعجزات

ويا حُجَّةَ الله فى الكائنات^(٢)

(١) قال شوبنهاور : « التاريخ للأمم هو كالعقل للأفراد » .

(٢) حجة : برهان .

ويا بسمة الربِّ فى أرضه

ويا وجههُ الضاحك القسَمات^(١)

ويا لوحةً فى سِجِلِّ الخلود

تموج بها الصورُ الخالطات

ويا قصةً بثَّ فيها الوجود

معانى السُّمُوِّ برُوع الحياة^(٢)

ويا صفحةً خطَّ فيها البقا

بنارٍ ونورٍ جهادَ الأَباءِ^(٣)

ويا للبطولات تغزو الدُّنَا

وتلهيها القِيَمُ الخالِداً^(٤)

وأسطورةً ردَّدتها القُرونُ

فهاجت بأعماقنا الذِّكريات

ويا تربةً تاه فيها الجلالُ

فتاهت بها القِيَمُ الشَّاحِخات^(٥)

وألقي النهاية فيها الجمال

فهمنا بأسرارها الفاتنات^(٦)

(١) القسَمات : الملامح .

(٢) رُوع : عظمة وجلال .

(٣) البقا : البقاء ، والأبَاءُ : جمع أبى ، وهو الذى لا يقبل الذل .

(٤) الدنا : جمع دنيا .

(٥) تاه : افتخر وتباهى .

(٦) همنا : ازددنا حُبًّا وهيامًا .

وَأَهْوَى عَلَى قَدَمَيْهَا الزَّمَانُ

فَأَهْوَى عَلَى قَدَمَيْهَا الطُّغَاةُ

شَغَلْنَا الْوَرَى وَمَلَأْنَا الدُّنَا

بِشَعْرِ نَرْتَلَهُ كَالصَّلَاةِ

تَسَابِيحُهُ مِنْ حَنَائِيا الْجَزَائِرُ

ويدل هذا الاستهلال الذى يتكون من عشرة أبيات نُظِمت على نسق الشعر التقليدى ذى الشطرين والقافية الواحدة ، يليها ثلاث شطرات على نفس الوزن ، وهو المتقارب ، ولكنَّ كُلاً منها مستقل بقافيته ، وهذه الشطرات تسمى اللازمة ، لأنها تتكرر فى نهاية كل مقاطع الإلياذة . وقد التزم مفدى زكريا فى هذه المقاطع جميعاً برغم طول القصيدة بالوزن المذكور ، مع تنويع القافية من مقطع إلى آخر . أما من حيث الفن الشعرى ، فإن المقطع الأول الذى أوردناه يدل على تدفق الشاعر وتوجهه فى التعبير عن عشقه لوطنه ، وكأنه ينهل من نبع فياض يروى منه روحه الطامئة ، والتى تكاد تذوب وجداً به ، وهياماً بكل ذرة فى ترابه ونسمة فى فضائه . وهو فى فرحة غامرة لتوحده بهذا الوطن الذى لا يضاهيه فى سحره أجمل الأوطان ، فهو أرض المعجزات ، وأسطورة بها حفل به تاريخه من بطولات تمثل أسمى القيم الإنسانية .

وإذا كان الفخر بالوطن والأهل والذات فى الشعر القديم يتسم بالصوت الجهير والرنين العالى الذى يعكس شدة الاعتداد بالنفس والزهو بالأباء والأجداد ، ويعيب كثيراً من نهاذجه ما تشى به من بقايا النزعة القبلية المتعصبة ، ولا سيما إذا اقترن الفخر بالتعريض بالآخرين ، وفقد بذلك الروح الإنسانية التى تسع الناس جميعاً ، وتودى إلى تواصل المُتَلَقِّ (١) مع

الشاعر ، وتعميق معانى التعاطف والتراحم والإخاء ، فإن مفدى زكريا - برغم ما قد يبدو من مبالغة فى تعبيره - لا تخلو أبياته من المسحة الإنسانية ، لأن حب الوطن من الإيمان فى الموروث العربى ، فليس من الإنصاف أن نتهم الشاعر بالشطط (١) لأنه صادق فى إحساسه ، مثلما لا نتهم « شوقى » بذلك فى قوله ، معبراً عن حنينه إلى مصر حين كان منفياً فى الأندلس بأمر من الإنجليز الذين كانوا يحتلون البلاد فى أثناء الحرب العالمية الأولى :

وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

فالمقطع أغنية حب للوطن أكثر منه شعراً فى الفخر ، ولذلك اتسمت الأبيات بالركة ، والصياغة بالانسياب ، فلا ضجيج يشوبها ، ولا اعتساف فى معانيها أو تعقيد فى تراكيبها ، مثلما فى ذلك مثل الشعر الغنائى الوجدانى ، والصنعة فيها خُلُوٌّ من البهرج المصطنع ، ولا يعيها من حيث الصياغة إلا تكرار صيغة النداء « يا » المسبوق بحرف العطف تكراراً قد يُغترف فى السرد النثرى أو الخطابة ، ولكنه غير مقبول فى الشعر . بيد أن حماسة الشاعر المتأججة هى التى أدت إلى هذا الإطناب والإسهاب ، ومن ثم إلى التكرار ، فى حين أن التكثيف أليق بالشعر ، لأنه أشد وقعاً ، وهو يترك للقارئ مساحة للتخيل يملؤها بنفسه ، وكأنه يشترك مع الشاعر فى إبداعه . ويقول نقادنا القدامى : « إن ترك المسكوت عنه بلاغة » .

ومع ذلك فإن هذا المقطع يتفق من حيث جمال الصياغة بصفة عامة مع ما قاله هؤلاء النقاد فى بيان إحدى خصائص القصيدة الجيدة ، وهو حسن الاستهلال ، وقول بعضهم فى هذا المعنى : « أحسنوا معاشِرَ الكُتَّابِ الابتداءات ، فإنهن من دلائل البيان » ، فضلاً عن أن الاستهلال البديع يغرى القارئ بمتابعة قراءة القصيدة .

ويتنظم المقطع الثانى على نفس المنوال ، فهو صورة بانورامية للجمال الذى تشعه الجزائر ، إذ يصفها الشاعر بأنها بدعة فاطر السموات والأرض ، وبابل ، المدينة القديمة التى ينسب السحر إليها ، وهى ومضة الحب ، وإشراق الوحي ، وثورة الشعب ، ومعقد وحدته . ويبدع مفدى زكريا فى المقطع الثالث إذ يرتفع بعاطفته الوطنية حتى يساويها بعقيدته ، فيناجى الجزائر مناجاة العاشق لحبيبته ، والعابد لربه :

جزائرُ يا حكاية حُبِّى

ويا من حملتِ السَّلامَ لقلبي

ويا من سكبتِ الجمالَ بروحي

ويا من أشعتِ الضياءَ بذرِّبى (١)

فلولا جمالكِ ماصحَّ دينى

وما إنْ عرفتُ الطريقَ لرَبِّى (٢)

ولولا العقيدةُ تغمرُ قلبي

لما كنتُ أومن إلا بشعبى

ويقول فى البيت الأخير مفاخرًا بآليادته : إنه قد سما بها إلى أفق المتنبي شاعر العربية الأكبر ، فاعترف له بالعبقريّة :

تَنَبَّأتُ فيها بآليادتى فآمن بى وبها « المتنبى »

ويظل ضمير المخاطب « أنتِ » المقصود به الجزائر مسيطرًا على النسيج اللغوى ، للدلالة على شعور مفدى بالنشوة كلما خاطب محبوبته ، وهى

(١) أشعت : نشرت .

(٢) يقول مخاطبًا بلاده : إن جمالك آية كونية أرشدتنى وهدتني إلى معرفة الله تعالى ، لأنه خالق هذا الجمال

الجزائر ، شأنه فى ذلك شأن كل العشاق الذين يسعدون بترديد أسماء أحبابهم ، وإضفاء أجمل الصفات عليهم ، حتى يكادوا يتوحدون بهم كما يتوحد الصوفي بالذات الإلهية :

جزائرُ أنتِ عروسُ الدُّنَا

ومنكِ استمدَّ الصباحُ السَّنَا

وأنتِ الحنانُ وأنتِ السَّماحُ

وأنتِ الطَّمَاحُ وأنتِ الهنا (١)

وأنتِ السموُّ وأنتِ الضميرُ

الصريحُ الذى لم يُخُنْ عهدنا

ومنكِ استمدَّ البُناةُ البقاءَ

فكان الخلودُ أساسَ البنا (٢)

وألهمتِ إنسانَ هذا الزمانِ

فكان بأخلاقنا مؤمنًا (٣)

وعلمتِ آدمَ حُبَّ أخيه

عساهُ يسيرُ على هَدِينَا

صَنَعَتِ البطولاتُ من صُلْبِ شعبٍ

سَخَى الدماءُ فَرَعَتِ الدُّنَا (٤)

(١) الطَّمَاح : الطموح .

(٢) البنا : البناء .

(٣) مؤمنًا : مؤمنًا .

(٤) سَخَى الدماء : كريم فى بذل دمائه فى سبيل الوطن . رعت : روَّعت وأذهلت .

وتتألق شاعرية مفدى فى مطالع المقطوعة التالية باستخدام الأسلوب الاستفهامى الذى يشد انتباه المتلقى ويثير فكره ، وإبداع الصور الأخاذة الموحية ، وترديد أسماء الأماكن والشخصيات التى يستدعيها من الواقع أو من ذاكرة التاريخ ، مباهيًا بها سعيدًا بتمجيدها وتحليلها كى تذكرها الأجيال :

أفى رؤية الله فكرك حائر
وتذهل عن وجهه فى الجزائر؟
سل البحر والزورق المستهام
كأن مجاذيفه قلب شاعر
سل الورد يحمل أنفاسها
لحيدر مثل الحظوظ البواكر^(١)
و(أبيار) تزهو بقديسها
(رفائيل) يخفى انسلال الجاذر^(٢)
تباركه أم إفريقيًا
على صلوات العذارى السواحر
وفى (القصة) امتد ليل السهارى
ونهر المجرّة نشوان ساهر
وفى (ساحة الشهداء) تعالى
مآذن تجلو عيون البصائر

(١) حيدر : المقصود حى الحيدرة ، وهو من أجل وأرقى أحياء العاصمة الجزائرية .

(٢) الأبيار والقصة أهم أحياء العاصمة الجزائرية ، وساحة الشهداء من أكبر ميادينها . والجاذر جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية .

وفى كل حى غوالى المنى

وفى كل بيت نشيد الجزائر

تتواشج الصلة بين الإسلام والمسيحية فى الأبيات السابقة ، إذ يستعيد الشاعر من أعماق التاريخ ذكرى القديس روفائيل الذى عاش فى الجزائر بعد أن جاء الدين المسيحى فى عصر الرومان ، فشيد الرهبان الأديرة . ويشير الشاعر بعبارة صلوات العذارى إلى الراهبات ، ثم يذكر مآذن المساجد للدلالة على الوحدة الوطنية والإنسانية وساحة الإسلام .

ويعود الشاعر إلى وصف الطبيعة الجزائرية مصورًا سلاسل جبالها ، وأهمها جبال الأطلس الممتدة من المغرب الأقصى حتى الجزائر ، وجبال جرجرة ، والأوراس التى أطلق اسمها على ثورة الجزائر ، فسميت ثورة الأوراس ، إذ كانت أهم معاقل المجاهدين ، فمن قممها وسفوحها دوت رصاصاتهم وصيحاتهم التى زلزلت قلوب الغزاة ، ومنها كانت تغير جحافلهم الفدائية على ثكنات الجيش الاستعمارى ومعسكراته المنتشرة حول المدن والقرى فتدكها دكا ، وهم يستهينون بالموت فى سبيل حياة وطنهم وفداء لشعبهم :

سل الأطلس الفرّد عن جرجرا
تعالى يشد السما بالثرى
تلوّن وجه السماء به
فأصبح أزرقها أخضرًا
وتجنّو الثلوج على قدميه

خشوعًا فتسخر منها الذرى

هو الأطلس الأزلئ الذى

قضى العمر يصنع أسد الشرى

وتسمو بأوراس أجماده

فتصدع في الكون هذا الورى (١)

فيامن تردد في وحدة

بمغربنا وادعى وامترى (٢)

أما وحد الأطلس المغربى

معاقلنا بوثيق العرى ؟

أما طوقتنا سلاسله

فطوق تاريخنا الأعصرا ؟

ويرى مفدى أن الحب والثورة صنوان ، لأنها يصدران من نبع واحد ، هو القلب المضطرب العاطفة ، ومن لا يعرف الحب لا يقوى على الحرب . وهو يبدأ الأبيات الآتية بالحديث عن ذكرياته في حى باب الوادى بالعاصمة الجزائرية ، مهوى فؤاده ، ومهد أحلامه في الشباب ، وبجلى الجمال الذى طالما ملأ به عينيه ، وأوحى إليه بأعذب الشعر وأرقه نغماً ، ثم يمزج بين ثورة قلبه وثورة شعبه ، ويذكر القارئ بكفاحه في سبيل هذه الثورة :

وفي باب واديك أعمق ذكرى

أعيش بأحلامها الزرق دهرًا

(١) الورى : الخلق ، والمقصود هنا الأعداء .

(٢) امترى : كذب وافترى .

بها ذاب قلبى كذوب الرصاص

فأوقد قلبى وشعبى جمرًا

وثورة قلبى كثورة شعبى

هما ألهمانى فأبدعت شعرا

إذا القلب لم يتفرض للجمال

ولم يئل فى الحب خلوا ومرا (١)

فلا تثقن به فى النضال

ولا تعتمد فى المهمات صخرًا (٢)

وحرب القلوب كحرب الشعوب

ومن صدق العهد أحرز نصرًا

وعلمنى الحب حب الفدا

فكنت بحبى وشعبى برًا (٣)

ويتغنى الشاعر في سائر مقاطع الملحمة بجمال المدن الجزائرية ودورها في الكفاح الوطنى عبر مختلف العصور ومؤسساتها الحضارية ، مخصصًا لكل مدينة مقطعًا من ملحمة يذكر فيه أبرز أبنائها ، من علماء ، وحكام ، وثوار ، وشهداء ، ويصف أهم معالمها وملاحمها ، وأشهر المعارك التى خاضها رجالها ، منتقلًا من وهران إلى تلمسان ، ومن ندرومة إلى سكيكدة ،

(١) لم يئل : لم يختبر ، والمعنى : لم يكابد .

(٢) يقول الشاعر : إن القلب الذى لا يشعر بالجمال ولا يحقق بالحب لا يصلح صاحبه للنضال ، ولا يؤثق به في حمل الأعباء الجسيمة ، لأنه مثل الصخر لا حياة فيه .

(٣) البر : الوقف المطيع .

وغيرها من المدن ، راصداً الأزمنة التى مُرت بها ، وموقعها بين الأمس واليوم ، بأسلوب سردي أحياناً ، وشاعريّ أحياناً أخرى ، وهو فى الحالين يدل على عشقٍ للمكان ، وولعٍ بتصويره ، وحاسة مرهفة تلتقط بالبصر والبصيرة مميزات المدن بصفة خاصة ، والنفاذ إلى جوهرها واستشفاف روحها . وقد لاحظ هذه الظاهرة الإبداعية الأستاذ الناقد الجزائرى الدكتور إبراهيم روماني وخصّها بدراسة وافية ، وسوف نتناول فى البحث التالى قصيدة مفدى التى يصور فيها إحدى مدن الجزائر ذات التاريخ المجيد .

وتشع أبيات مفدى زكريا بحرارة الوجد ، فى المقاطع التى يشدو فيها بحبه الغامر لوطنه ، ومن أشدها وقعاً وأبدعها تصويراً المقطع الآتى :

فيا أيُّها الناس هَدى بلادى

ومَعْبُدُ حُبِّى وحُلُمُ فُؤادى

وإيمانُ قلبى وخالِصُ دينى

ومبناه فى ملَّتى واعتقَادى (١)

بلادى أَحبُّكَ فوق الظُّنونِ

وأشدُّو بِحُبِّكَ فى كلِّ نادى

عشقتُ لأجلِكَ كلَّ جميل

وهُمْتُ لأجلِكَ فى كلِّ وادى

ويختتم الشاعر قصيدته الملحمية بمثل ما بدأها ، وردده فى ثناياها ، وهو الهمّات باسم الجزائر ومناجاتها ، والدعاء لها بتحقيق آمالها فى الحرية والسلام والرخاء ، وكأنه عابِد يرتل الصلوات فى المحراب ، أو عاشق يهيم

(١) اقتباس من بيت أبى العلاء المعرى :

نُوحُ بَاكٍ ولا تُرَنِّمُ شَادِى .

غَيْرُ مُجِدِّ فى مِلَّتى واعتقَادى

حُبّاً بمن اختارها فؤاده . ولكن مفدى زكريا مناضل ثائر أيضاً ، ومن ثمَّ يجمع المقطع الأخير بين همسات المحبين وصيحات الفدائيين ، بين الزهر والجمهر ، بين الخيال الرومانسى والواقع الثورى :

بلادى بلادى الأمان الأمان

أَغْنِى عَلاكَ بِأَى لِسَانٍ ؟

جلالُكَ تَقْصِرُ عنه اللُّغَى

وَيُعْجِزُنِى فِىكَ سِحْرُ البَيَانِ (١)

وهامَ بك الناسُ حتى الطُّغَاةُ

وما احترموا فِىكَ حَتَّى الزَّمان

وَأَعْرَيْتِ مُسْتَعْمِرِيكَ فراحوا

يهيمونَ فى الشرق بالصَّوْلُجان

ولم يَبْرَحُوا الأَرْضَ لَمَّا استقلتْ

شعوبٌ ولم تَسْكُنْ للهوان

وزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زلزالها

وضجَّ لغاصبك النَّيْران (٢)

وراهنه الشعبُ يوم التنادى

ورجَّ به الشعبُ يوم الرّهان

فتبيّضُ صفحَةً إفريقيّا

ويَسْوَدُ وَجْهَهُ المُغِيرِ الجَبان

(١) اللغى : اللغات .

(٢) النَّيْران : الشمس والقمر .

وإشراقه الروح منك تناهت

تُسبغُ الجمال وتُنقى الحنان

إليك صلاتي وأزكى سلامي

بلادي بلادي الأمان الأمان

شغلنا الورى وملاًنا الدنيا

بشعر نُردّده كالصلاة

تسايحة من حنايا الجزائر

فى دار الخلود

المقادير أن تحدث جفوة بين مفدى زكريا وبين حزب جبهة
شاعت التحرير الذى تولى السلطة بعد انتصار الثورة ، إذ كان يتطلع
إلى أن يسند إليه الحزب منصباً مرموقاً فى الحكومة الجزائرية
لقاء ما قدمه من تضحيات فى سبيل الوطن ، ولمكانته الأدبية التى حظى بها
ولم يناعه فيها أحد ، نظراً لعطاءه الوفور والمتميز فى ميدان الشعر ، ويدل
على هذه المكانة أن اسمه قد اقترن بالثورة ، فلا يذكر إلا موصوفاً بشاعر
الثورة الجزائرية ، وإن كان الشاعر محمد العيد آل خليفة قد حظى أيضاً
بمثل هذه المنزلة .

غير أن الشاعر الوطنى المرفه الحس فوجىء بتعيينه مديراً لإحدى
المدارس التابعة لوزارة التعليم ، وهو الذى تولى من قبل مرحلة الكفاح
المسلح منصب الأمين العام لحزب الشعب سنة ١٩٣٧ ، كما تولى رئاسة
تحرير صحيفة الشعب وهو لم يكمل الثلاثين من عمره ، مما يرجع إلى مواهبه
وقدراته الأدبية ومواقفه النضالية . وكانت قصائده تُنشر وتذاع فى المغرب
العربى الكبير وتصل إلى المشرق ، فتتال ما هى جديرة به من إعجاب ومن
تقدير لصاحبها ، وحسبه أنه مبدع كلمات النشيد الوطنى للدولة .

فلا غرو أن يهاجر مفدى زكريا مغضباً إلى دولة المغرب الشقيقة ، وهناك
استقبله المسئولون أحسن استقبال ، وأنزلوه بينهم أكرم منزل ، لا باعتباره
ضيفاً عزيزاً من بنى العم فحسب ، ولكن بصفته شاعراً كبيراً ذائع الصيت ،

يَشْرَفُ به كل موطن يزوره أو يقيم فيه في العالم العربي ، فطابت نفسه ، إذ عوضه الأَشْقَاءُ عن بعض ما فاته خير العوض ، وإن كان الحزنُ ظلَّ كامناً في حناياه .

ولكن الحظ العاثر كان من نصيب الشاعر حتى في المغرب ، كأنها لم يكفه حرمانه من وطنه وأهله ، ذلك أن العلاقات السياسية بين حكومة الثورة الجزائرية وبين الحكومة المغربية قد أُصِيبَت بالتصدع بسبب مانشب من خلاف على الحدود على أثر جلاء جيش الاحتلال الفرنسي عن الجزائر وإعلان استقلالها ، واتهام الحكومة الجزائرية المغرب بالاستيلاء على جزء من أراضيها قبل أن تضمّد جراحها من صراع مسلح استمر سبع سنوات ونصف السنة ، واستفحل النزاع حتى دقت طبول الحرب ، واتخذ الرئيس جمال عبد الناصر موقفاً مناصراً للدولة الجزائرية الوليدة بعد أن أخفقت مساعي الصلح ، وأرسل عدداً من الضباط والجنود المصريين إلى جبهة القتال . ومن المفارقات المثيرة للأسى أن بعضهم وقع في أسر الجيش المغربي ، ولم يُطلق سراحهم إلا بعد سنوات طويلة .

وليس من المستغرب أن تكون هذه الأحداث المأساوية قد ألقت بظلمها الثقيل الكئيب على نفس مفدى زكريا ، ولعله تمنى حينئذ أن يكون الصراع العسكري الذي جرى بين الدولتين الشقيقتين سحابة صيف عن قريب تنقش ، وأن تعود إلى مجاريها مياه الإخاء والتعاون بينهما ، ولكن :

ماكلُ ما يتمنى المرءُ يدركهُ

تأتى الرياح بما لا تشتهي السفنُ

فقد زاد الطين بلة أن بعض سكان الصحراء الغربية بالمغرب قد تمردوا على السلطة وطالبوا بالاستقلال ، واتهمت المغرب حكومة الجزائر بالانحياز إليهم ومدّهم بالسلاح ، وأدرك الشاعر الذي طالما دعا إلى وحدة الشعوب

في المغرب العربي أنه قد وقع بين شِقَى الرَّحَى ، إذ كان كبارُ الساسة والمجاهدين ساحطين عليه خفية ، وخاصة بعد أن نظم ونشر قصائد يمدح بها ملك المغرب ، وأخرى يمدح فيها الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ، إذ كان يتنقل بين المغرب وتونس ، مما اعتبروه ردة عن مواقفه الوطنية التاريخية ونضاله من أجل وطنه ، وإن لم يحولوا بينه وبين زيارة بلاده في مناسبة أو أخرى ، أهمها الاشتراك في مؤتمر الفكر الإسلامي .

ومسيرة لِعُصْبَةِ السُّلْطَةِ على الشاعر عمدت وسائل الإعلام والرأى العام والمنتديات الثقافية إلى إسْدَالِ ستار التجاهل عليه ، فتلقفه النسيان ، إلا من صفوة المثقفين الذين يعرفون قَدْرَهُ ، ولكن أحداً لم يجرؤ على ذكره . ومضت عليه الأيام بحلوها ومرها بعيداً عن الوطن ، حتى لقي ربه في تونس يوم ١٧ أغسطس ١٩٧٧ . وبلغ النبأ المسؤولين بالجزائر ، فكان للرئيس هواري بومدين موقف وطني وإنساني يَحْمَدُهُ له التاريخ ، إذ رأى أن موت الشاعر وانتقاله إلى ذمة الله محاً ما كان من خلاف ، فأمر بإرسال طائرة تقل جثمانه الطاهر إلى بلاده . وفي قرية بنى يزقن بولاية غرداية في منطقة وادي ميزاب مسقط رأس الشاعر وُورِي رُفَاتِهِ في التراب الذي شهد مهد طفولته ومرتع صباه .

ولكن الأضواء ظلت محجوبة عن مفدى زكريا حتى بعد رحيله ، فلم تَنَعُ الصحف ، أو يَعرِضَ لِذِكْرِه الأديباء والمجاهدون ، بل خرجوا بالصمت عن لا ونعم ، حتى قِضَ الله له مَنْ يذكى اللهب في الرماد ، ذلك أنني بعد بضع سنين من قدومي إلى الجزائر في خريف ١٩٧٧ اطلَعْتُ على ديوان (اللهب المقدس) للشاعر مفدى زكريا ، وكان أعارنيه خلسة أحد أبنائي الطلاب ، وكأنه من المحظورات ، فبهرتني أشعاره وحياته العاصفة ، كما هالني أن يُكَافَأَ بإهمال شأنه حتى بعد أن لَقِيَ ربه ، وإسقاط اسمه من قائمة المناضلين أيّاً كانت الأسباب التي تكمن وراء هذا الموقف .

فكتب مقالاً عن مفدى زكريا شاعراً ومناضلاً ، وذلك بعد رحيله عن حياتنا الفانية ، وأبدى دهشة من إنكاره ، ودعوت إلى إنصافه ، ونشرت المقال بصحيفة (الرأى العام) الكويتية فى أول أكتوبر ١٩٨٣ ، وأطلعت عليه الصديق الصحفى بلقاسم بن عبدالله الذى كان يشرف على الملحق الأدبى لجريدة الجمهورية فى وهران ، وكأنها مددت له طوق نجاة للشاعر ، فأثار الموضوع فى مقال بتاريخ ٢٩ أكتوبر ، على صفحات تلك الجريدة بعد أن انس اتفاق الرأى العام الأدبى معه ، وكان أول مقال كتبه بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٨٤ . وظل يتابعه بعد أن وجد له صدًى فى المجتمع . وما يجدر بالتنويه أن هذا الصحفى كان أول من اخترق جدار الصمت المضروب حول الشاعر بإجراء حوار معه سنة ١٩٧٢ فى أثناء مشاركته فى مؤتمر الفكر الإسلامى بالجزائر ، ولكن هذا الحوار ظل مطوياً فى غيابة النسيان بسبب سوء العلاقة بين مفدى زكريا وبين السلطة ، ولم ينشره محرره إلا فى نوفمبر ١٩٨٤ .

وقد عُدْتُ بعد بضع سنين - وكنت لا أزال بالجزائر - إلى الكتابة عن مفدى زكريا الشاعر العبقري الراحل ، لتعريف الأجيال الجديدة به فى المشرق والمغرب ، واطلعت على بعض ما كتبت الكاتب الصحفى الكبير الأستاذ صبرى أبو المجد ، فكتب فى ديسمبر ١٩٨٥ على صفحات مجلة المصور التى تصدرها دار الهلال بالقاهرة مقالاً يقول فيه :

« لم أكن أعرف أن الشاعر مفدى زكريا قد انتقل إلى جوار ربه فى عام ١٩٧٧ غريباً عن وطنه الذى عشقه وقضى حياته متغنياً بحبه ، وتحمل الآم السجون والمعتقلات دفاعاً عن حريته ، وربما لولا تلك الكلمات التى كتبها الدكتور حسن فتح الباب فى جريدة الرأى العام الكويتية منذ أيام لما عرفْتُ ذلك النبأ المحزن الأليم ، وتلك إحدى آفات المقاطعة والقطيعة التى ابتلينا بها حتى على مستوى العلاقات الشخصية . ثم يذكر الكاتب لقاءه بالشاعر

فى أحد ملتقيات الفكر الإسلامى حيث وجده « شاعراً إنساناً ، يعانى محنة الجحود والنعوان » . ويختتم المقال بهذه الفقرة : « كان مفدى زكريا يأمل أن يجد بعض التكريم فى حياته ، ولكن أمله لم يتحقق . على أية حال فإن ثقتى المطلقة فى كُتَّاب شعب الجزائر وشعراته قوية للغاية فى أن يقوموا بتكريم صاحب « الإلياذة » ، وفى ترجمتها إلى اللغات الحية فى العالم ، لأنها من أروع ما أبدع الشعراء العرب والمسلمون » (١) .

ولما كان أول الغيث قطراً ثم تنهمر كما يقول الشاعر العربى القديم ، فقد كانت المقالات المذكورة التى تدعو إلى رد اعتبار مفدى زكريا مثل حجر يُلقى فى الماء ، فيحدث دائرة سرعان ما تنداح حتى تتحول إلى دوائر تتسع واحدة بعد أخرى ، وهكذا أقبل الأدباء والنقاد على إنتاج الشاعر يدرسون وينشرون أبحاثهم بشأنه ، وغداً هذا الإنتاج موضوع دراسات عليا بالجامعات فى الجزائر والبلدان العربية وفرنسا . وقد تجلّى اعتراف الدولة بمكانة مفدى ودوره فى الحركة الوطنية فى عقد مهرجان ثقافى سنوى باسم الشاعر فى العاصمة الجزائرية بدأ فى عام ١٩٨٥ . وفى سنة ١٩٨٦ أنجز ابنه الدكتور سليمان الشيخ الباحث الأكاديمى فى باريس ، ثم رئيس جامعة الجزائر بعد ذلك ، مشروع تسجيل (إلياذة الجزائر) بصوت الشاعر فى « أسطوانات » لتعميم الاستماع إليها ، وبدأ مشروع ترجمتها إلى بعض اللغات العالمية بعد إنجاز ترجمتها إلى الفرنسية كما أشرنا آنفاً .

هكذا اعتدلت مسيرة التاريخ ، ونال شاعر الثورة الجزائرية بعض حقه ،

(١) احتفى الكاتب الصحفى الجزائرى بهذا المقال حين أطلعت عليه ، فأعاد نشر فقرات منه على صفحات جريدة (الجمهورية) بوهان ، ثم ضمَّها كتابه (حديث وذكريات مع الشاعر مفدى زكريا) الذى صدر سنة ١٩٩٠ . هذا وقد أتاحت ملتقيات الفكر الإسلامى عقد أواصر الود والصداقة بين الشاعر وبين أدباء مصر الذين شاركوا فى أعمال هذه الملتقيات ، ومنهم الشاعر صالح جودت ، الذى جرت بينه وبين مفدى رسائل تتسم بالدعابة والفكاهة .

ولئن كان قد غاب بجسده عن عالم الأحياء ، فإن روحه مازالت ترفرف على الآفاق ، حاملة صدى صوته من دار الخلود ، مرددة قصائده وأناشيده التي لا تفنى ولا تدبّل نضرة ورودها ، وفي مقدمتها النشيد الوطنى الذى كَتَبَ مفدى كلماته ، والذى يردده تلاميذ الجزائر كل صباح وهم ملتفون حول علم بلادهم ذى اللون الأخضر الدال على السلام والرخاء بعد الاستقلال ، والهلال والنجمة الحمراءوين ، للدلالة على ما سكبته الثوار من دماء كي تشرق شمس هذا اليوم ، ويرفع هذا العلم .

مقتارات من شعر مفدى زكريا

الذبيح الصاعد (*)

هَامَ يَخْتَالُ كَالْمَسِيحِ وَثِيدًا
يَتَهَادَى نَشْوَانٌ يَتَلَوُ النَّشِيدَا (١)
بِاسْمِ الثَّغْرِ كَالْمَلَأْثِكِ أَوْ كَالطُّفْلِ
يَسْتَقْبِلُ الصَّبَاحَ الْجَدِيدَا
شَاخًا أَنْفُهُ جَلَالًا وَتِيهًا
رَافِعًا رَأْسَهُ يَنَاجِي الْخُلُودَا (٢)
حَامِلًا كَالْكَلِيمِ كَلِمَةَ الْمَجْدِ
فَشَدَّ الْحَبَالَ يَبْغِي الصُّعُودَا (٣)
وَتَسَامَى كَالرُّوحِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ
سَلَامًا يَشْعُ فِي الْكَوْنِ عِيدَا
وَأَمْتَطَى مَذْبَحَ الْبَطُولَةِ مِعْرَاجًا
وَوَافَى السَّمَاءَ يَرْجُو الْمَزِيدَا

(*) رثى الشاعر بهذه القصيدة - وهى طويلة يبلغ عدد أبياتها ٦٨ بيتاً - الشهيد أحمد زبانا ، أول من نفذت السلطة الاستعمارية فى الجزائر حكم الإعدام الصادر ضده بالمقصلة فى ١٨ يولية ١٩٥٥ .
(١) وثيداً : بطيئاً .
(٢) تيهاً : افتخاراً .
(٣) الكليم : موسى عليه السلام .

وتعالى مثل المؤذن يتلو

كلمات الهدى ويدعو الرُقودا

صرخة ترجف العوالم منها

ونداء مضى يهز الوجودا (١)

« اشفقونى فلست أخشى حيالا

واصلبوني فلست أخشى حديدا (٢)

وامتثل سافرا محياك جلادى

ولا تلتئم فلست حقودا (٣)

واقض يا موت فى ما أنت قاض

أنا راض إن عاش شعبى سعيدا (٤)

أنا إن مت فالجزائر تحيا

حررة مستقلة لن تبيدا «

زعموا قتله وما صلبوه

ليس فى الخالدين عيسى الوحيدا

(١) ترجف : ترتعش .

(٢) الحبال والحديد : المقصود بهما المقصلة .

(٣) امتثل سافرا محياك : أى اكتشف عن وجهك وانزع عنه اللثام ، وهو الغطاء الذى يضعه الجلاد على وجهه ، ولا يبدو منه إلا عيناه ، وذلك فى أثناء تنفيذه حكم الإعدام . والمعنى : لست أخافك ولا أخشى الموت .

(٤) يقول مخاطبا الموت : افعل ما شئت ، فإننى راض بمصيرى ما دام فى موتى حياة شعبى .

لفه جبرئيل تحت جناحيه

إلى المنتهى رخصيا شهيدا (١)

وسرى فى فم الزمان « زبانا »

مثلا فى فم الزمان شرودا (٢)

(١) جبرئيل : الملاك جبريل عليه السلام . المنتهى : المقصود بـ « زبانا » ، وهى شجرة عن يمين العرش الإلهى كما جاء فى قصة الإسراء والمعراج .

(٢) المثل الشرود : الدائع والمنتشر .

سَلَوَى

- ورُبَّ نجوى كدنيا الحبِّ دافئة
 قد نامَ عنها رقيى ليس يَسْتَرِقُ (١)
 عادتُ بها الروح من « سلوى » مُعْطَرَةً
 فالسجن من ذكر « سلوى » كله عبق (٢)
 سلوى ! أناديك سلوى مثلهم خطأ
 لو أنهم أنصفوا كان اسمك الرَّمَقُ (٣)
 يافتنه الروح هلاً تذكُرِينَ فتى
 ما ضَرَّهُ السجن إلا أنه وَمَقُ ؟ (٤)
 هل تذكُرِينَ إذا ما الحظُّ حالفنا
 إليك أهتفُ يا سلوى فنتَقِقْ ؟
 أم تذكُرِينَ ولحنُ الموج يُطربنا
 إذ نفرشُ الرمل في الشاطى ونعتنق ؟ (٥)

(١) يَسْتَرِقُ السمع : يسمع مستخفياً ، والرقيب المنتظر ، ويقصد به هنا من يراقب المحبين للوشاية بهم .
 (٢) عَبَقُ : طيب الرائحة .
 (٣) الرَّمَقُ : بقية الروح .
 (٤) ضَرَّهُ : أحدث به ضرراً . ومَقُ : محب .
 (٥) نعتنق : نتعانق . الشاطى : الشاطيء .

الموج ينقل فى أصدائه قُبلا

- يَنْدَى لها الصخر حتى كاد يَنْفَلِقُ ! (١)
 نسابق الشمس نغزوها بزورِ قنا
 فيسخرُ الموج مِنَّا كيف نلتجئ (٢)
 وتغرب الشمس تطوى فى ملاءِها
 سَرَّين أشفق أن يُفشيها الشفق (٣)
 وكم سهرنا وعينُ الشمسِ نَحْرُنا
 إذ نلتقى كالرؤى حيناً ونفترق (٤)
 والليل يكتُم فى ظلماته شبحاً
 يأوى إلى شبح ضاقت به الطرق (٥)
 سلوى حديثك يا سلوى يباغِمُنِي
 والطرفُ يَحْتَنُّ لا يدرى به الحدق (٦)
 أنفاسك الطُّهر كالصَّهْبَاءِ تغمرنى
 دفئاً ويُسْكِرُنِي من فَرَعِكَ العرق (٧)

(١) يندى : يبلله الندى . ينفلق : ينشق .
 (٢) نلتجئ : نلتحق به .
 (٣) المعنى أن الشفق رحم سر الحبيبين فلم يُدعه .
 (٤) الرؤى : جمع رؤيا ، أى الخيال أو الحلم .
 (٥) يقصد أن الظلام يحجب الحبيبين فكأنهما شبحان .
 (٦) يباغِمُنِي من البُغام وهو الصوت الذى لا يبين . الطرف : العين .
 يَحْتَنُّ : يجادع . الحدق : العيون ، والمفرد حدقة ، والمراد عيون الآخرين .
 (٧) الصهباء : الخمر . فَرَعُ المرأة : شعرها .

سمراء خَدَرها البارى وصَوَّرها
 إنْ أَرْتَشِفْ ثَغَرها يَفْتِكْ بى الأرق^(١)
 سلوى أناديكِ سلوى هل تجاوبنى
 سلوى فإنْ لسانى باسمِها ذَلِقْ^(٢)
 رُدِّى علىَّ أَهْازِيجى مُوقَّعة
 فقد أعارَكَ وزناً قلبى الحَفِيقُ^(٣)
 ورَتَّلِها تساييحاً مُقدَّسة
 فى معبدِ الحبِّ يَسْجُدُ عندها الأفقُ
 واستأذنى فى رسالاتِ الهوى قمرًا
 يرئو إليه كِلانا حينَ يَتَسَقَّ
 إنى رأيتُ أَحْراكِ البدرِ ذا ثِقَةٍ
 جَلَّتْ أياديه فى دُنْيا الألى عَشِقُوا^(٤)

أنا نائر (*)

فى الحنايا
 وسوادُ الليلِ قاتمٌ
 مالت الأكوأُ سكرى
 ثملاتٍ^(١)
 أودَعَتْها مهجَةُ الأقدارِ سِرًّا
 والمنايا^(٢)
 بين مظلومٍ وظالمٍ
 مثقلاتٍ ضِيقَ صَبْرٍ^(٣)
 جائثاتٍ^(٤)
 ظَلَنَ يَرْقُبَنَ متى يُطْلَعَنَّ فجرا^(٥)

(*) هذه مقاطع من قصيدة نظمها الشاعر فى أثناء فراره من السجن فى طريقه إلى المغرب فى مارس ١٩٥٩، ووصفها بأنها نموذج من مذهبه الرصين فى الشعر الجديد، وهو يقصد أن تجديده يقتصر على عدم الالتزام بنظام البيت ذى الشطرين والقافية الموحدة للقصيدة، ولا يصل إلى حد الاستغناء عن القافية والوزن.

(١) ثملات : سكرى .

(٢) المنايا : جمع منية وهى الموت .

(٣) ضيق صبرًا : لم يستطع صبرًا .

(٤) جائثات : قاعدات .

(٥) ظَلَنَ : ظَلَّلَنَ ، أى : مكثن .

(١) خَدَرها : جعلها مستترية فى دارها مع أهلها . البارى : الخالق .

(٢) ذَلِقْ : بليغ فصيح .

(٣) حَفِيقُ : شديد الحركة والاضطراب . الأهازيج : الأنغام . الوزن : الإيقاع .

(٤) ذا ثِقَةٍ : موثوقًا به . جَلَّتْ أياديه : عَظُمَتْ نِعَمه علينا . الألى : الذين .

قام كالمارد يرتادُ المنيا (١)

وتهادى

يملاً العالمُ بشرى

وتحدّى الدهر لا يخشى الرّزايا

وتماذى

يغمُر الأكوآنَ عطراً

ويغنى فوق أعوادِ المشانق (٢)

فتحييه الخوافق (٣)

وتزكيه الخوارق (٤)

أنا ثائر

في الجزائر

أنا ثائر

إن أمت : تحي الجزائر .

(١) يرتاد : يجوب .

(٢) المعنى : أنه لا يخشى الموت شتقاً .

(٣) الخوافق : الطيور .

(٤) الخوارق : المعجزات .

المراجع

- ديوان « اللهيب المقدس » للشاعر مفدى زكريا الجزائر ١٩٩١ .
- ملحمة « إلياذة الجزائر » للشاعر مفدى زكريا الجزائر ١٩٨٧ .
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث د . أبو القاسم سعد الله الجزائر ١٩٨٥ .
- الشعر الجزائري الحديث د . صالح خرفي الجزائر ١٩٨٤ .
- أوراق في النقد الأدبي د . إبراهيم رمانى الجزائر ١٩٨٥ .
- عبد الناصر وثورة الجزائر فتحي الديب القاهرة ١٩٨٤ .
- شعر الشباب في الجزائر د . حسن فتح الباب الجزائر ١٩٨٨ .

مشاهير الشعراء العرب للاشئين والشباب

يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدم للشباب والناشئين هذه المجموعة من
أعلام الشعر العربي ، الذين عاشوا في عصور وبيئات مختلفة ، وتركوا
لنا بصمات واضحة في مسيرة الشعر العربي . يقدم كل
كتاب من هذه السلسلة ترجمة موجزة ووافية للشاعر وعصره ،
والتيارات الأدبية التي أثرت في شعره ، كما يلقي الضوء على
جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية ، مع الإلمام بسمات
كل شاعر والتعريف بالبيئة التي نشأ فيها ، والمدرسة
الشعرية التي يمثلها أو الاتجاه الشعري الذي ينسج
على منواله ، مع وضع نماذج ومختارات من شعره .

لقد تم اختيار هذه المجموعة من الشعراء المطبوعين المبدعين
على أيدي مجموعة من الكُتّاب المتخصصين في هذا المجال
- وجدير بكل شاب أن يلم بحياتهم ، وشعرهم الجيد
الراقي الرفيع الذي يتغلغل
في النفوس ويهز
الوجدان .



مشاهير عرب مفدي زكري



90
ل.س

تصميم ورسوم
محمد حجي